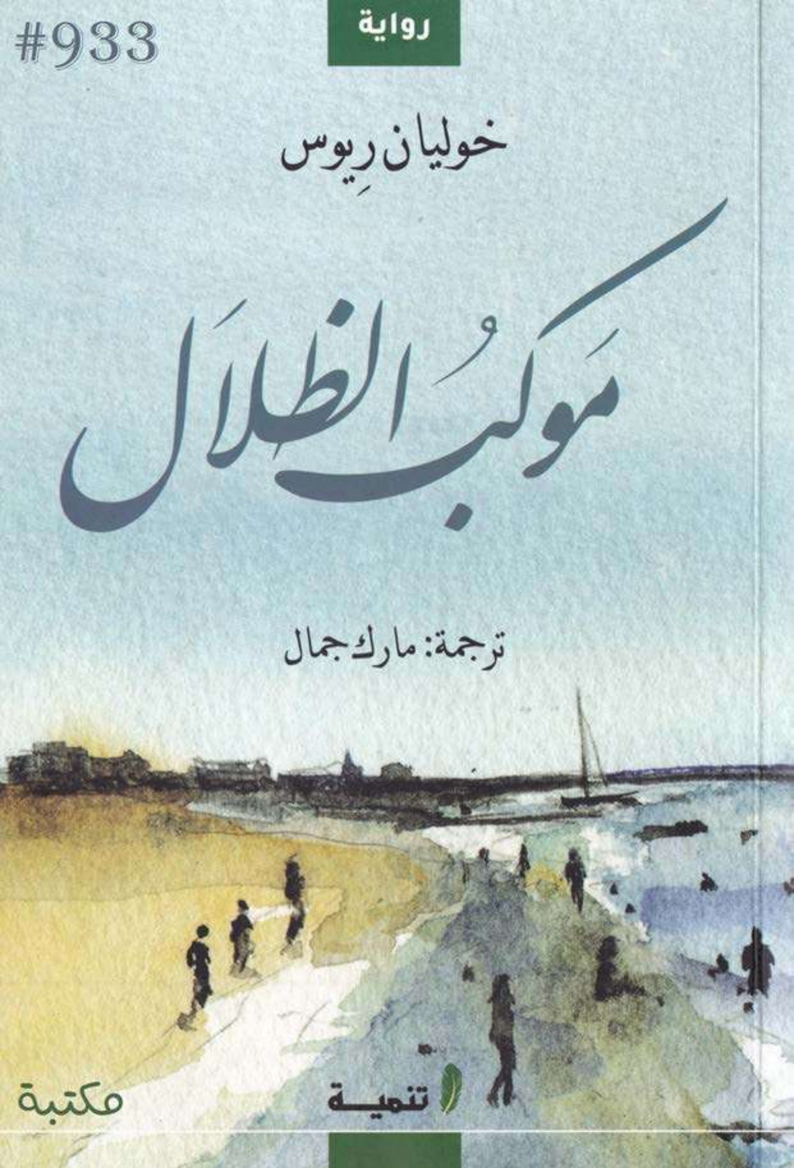

#933
رواية
خوليان رِيوس
مَوكبُ الظلال
ترجمة: مارك جمال
مكتبة
تنمية



موكب الظلال

مكتبة | سُر مَن قرأ

الكتاب: موكب الظلال

تأليف: خوليان ريوس

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

مراجعة لغوية: أحمد مدره

تصميم الغلاف: محمد النبهان

لوحة الغلاف: إهداء من الرسام Paco Somoza

عدد الصفحات

رقم الإيداع: 35

الترقيم الدولي:

الطبعة الأولى:



الرواية ترجمة للأصل الإسباني



١٩ شارع هدى شعراوي من شارع طلعت حرب – وسط البلد، القاهرة

محمول ٠٠٢٠١٠٠٤٣٦٧٧٤٤

هاتف ٢٣٩٢٦٢٤٩ / ٠٠٢٠٢

Email : khaled_tanmia@hotmail .com

خوليان ريوس

#933

موكب الظلال



ترجمها عن الإسبانيَّة

مارك جمال



«لأَنَّنا نَحْنُ مِنْ أَمْسِ
وَلاَ نَعْلَمُ،
لأَنَّ أَيَّامَنَا عَلَى الأَرْضِ ظِلٌّ».

(سفر أيوب، الإصحاح الثامن: 9)




MOHAMED KHATAB



كلمة المُؤلِّف

تاموغا، زيارة أخرى

كتبتُ «موكب الظلال» ما بين عامَي 1966 و1968 في مدريد (كانت محاولةً من جانبي لأعيش غاليثيا[1] التي تخصُّني مرةً أخرى، وأُعيد تمثيلها، من دون نعرة إقليمية، غاليثيا، بلد العجائب والطفولة والمراهقة، بما حَوَت من ظلال الماضي، المشؤومة أحيانًا، تلك الظلال المقترنة -بين حنين وشبحية- بذلك البلد الذي سوف ترحل عنه إلى غير عودة، أنت وغيرك من المهاجرين الكثيرين). وعندما ذهبت للعيش في لندن، عام 1969، حملت المخطوط عاقدًا النية على زيادة فصلين كنت قد وضعت لهما الخطوط العريضة. في النهاية، قرَّرت أن أترك الكتاب على حاله، واكتفيت بمراجعة الفصل الذي يحمل عنوان «بالونثو» وتنقيحه. من الممكن قراءة فصول الكتاب التسعة باعتبارها قصصًا قصيرة، كلٌّ على حدة. ومع ذلك، فلطالما دار في خلدي أنها تُؤلِّف روايةً مُتعدِّدة الأبطال تدور حول بلدة ومكان

---

(1) غاليثيا: إقليم يقع شمالي إسبانيا، ويُطِلُّ على المحيط الأطلنطي. جدير بالذكر أن أحداث الرواية كاملة تقع في غاليثيا.

من نسج الخيال، شخوصها يتعاقبون وينكشفون، من خلال مشقّات الحياة، المقترنة في ما بينها، بدرجة تقلّ أو تزيد.

حصل بعض هذه القصص على جوائز أدبية؛ فحازت قصة «ضمير المُخاطَب» جائزة غابرييل ميرو عام 1969، كما حصلت قصة «النهر بلا ضفاف» على جائزة أوتشا دي پلاتا في القصة القصيرة عام 1970، غير أني لم أتحمّس لإرسال الرواية إلى أحد الناشرين، آخذًا في الحسبان أن الرقابة لن تسمح بنشر فصل بعنوان «حملة صيد في يوليو»، زِد على ذلك أسبابًا أخرى دعت إلى إرجاء نشر هذا الكتاب. يأتي على رأسها اندماجي في المشروع السردي الذي يحمل عنوان «لاربا» بعد عام من انتقالي إلى لندن، المشروع الذي كان في سبيله إلى الامتداد عرضًا وطولًا، لأنها محاولة منّي للتوسُّع في اللغة الإسبانية والخروج بها من إطارها لإظهار التمازج والكوزموبوليتانية التي تُميِّز المدينة الكبرى على اعتبارها مُوجَزًا لهذا العالم. وهكذا، استقرَّيت على أنه خير لـ«موكب الظلال» أن يبقى في الظلّ، وألّا يرى النور في ذلك البلد المُستبِدّ الذي تركه خلفه (بينما ساحر نساء المهرجان في الرواية الجديدة يمضي قُدُمًا في موكب من النساء وظلال الليل على ضفاف نهر التايمز). في حياة لندن الحرة، وبالاندماج في لعبة الداما واللغات والأقنعة التي انطوت عليها رواية «لاربا»، رحت أنصرف عن «موكب الظلال» شيئًا فشيئًا، أو ربما تراءى لي أني ما عدت أفهم طريقه المُسطّحة الإسبانية.

ذات فجر تساقطت خلاله الثلوج بغزارة، في يناير من عام 1970، بمدينة لندن، وبعد أن تناولت العشاء في بيت أصدقاء لي من غولدرز غرين، شمال غربي المدينة، تعرَّفت بسائق سيارة أجرة اتّضح أنه من تاموغا في الأصل، أو مكان بالغ الشبه بتاموغا والقرب منها. وصل إلى

إنجلترا وهو في السابعة أو الثامنة من عمره مع أبويه، وبعد مضي ربع قرن من الزمان، كادت لغته الأمُّ تذهب أدراج النسيان. حاول أن يدلي بعبارات مُتفرِّقة باللغة الإسبانية، ساعدته على إتمامها ونطقها نطقًا أفضل. وبعد أن بلغت وجهتي، في منتزه كوينز، الأقرب إلى الجنوب، أمضينا ساعةً طويلةً في سيارته نتدرَّب على أساسيات الإسبانية، لغة حنينه المُستعَاد، وقد غمرتنا ندف الثلج التي كست المنتزه المترامي أمامنا باللون الأبيض. وإذا بمزقة من الذكريات تحضر مع كل عبارة مُنتزَعة بمشقة من غياهب النسيان. أصرَّ قائلًا بالإسبانية: sí، sí، (أجل، أجل). وهكذا، تشبَّث بماضيه، مُتمسِّكًا بلغته التي راح يتعلَّمها من جديد، بماضيه القصير الذي عاشه في تاموغا طفلًا. وإذا بذلك السائق اللندني، الذي يكبرني ببضعة أعوام، يحاول تعلُّم لغته وماضيه الضائعين مرةً أخرى. في حين كنت أنا في لندن أحاول نسيانهما، والافتراق عن ذلك البلد الخانق وتلك الأجواء الخانقة. حتى لافتة محطة تاموغا قد انمحى اثنان من حروفها، فصارت A OGA [خنق]، بدلًا من TAMOGA. وهي الكلمة التي جاءت في محلِّها على أكمل وجه. ومن منظور الزمن، الذي هو خير شرفة يطلُّ المرء منها على الأمور، أرى أنني حاولت النأي بنفسي عن إسبانيا، التي وجدت رائحتها تشبه رائحة الكافور آنذاك، أو رائحة الشياط، وإن كان الألم الذي أوقعته بي إسبانيا أخفَّ من ذلك الذي أنزلته بالروائي ميغيل دي أونامونو، الذي أعاد الراوي في «لاربا» صياغة قوله الشهير، على نحو هزلي، ونقله إلى الإنجليزية في ترجمة أمينة، إذ قال مُتعجِّبًا: Spain pains me! [إسبانيا تؤلمني!]. ولقد رأيت أن تمرّد اللغة خير أسبرين لعلاج داء جبال البرانس.

تعاقبت الأعوام والكتب والمدن التي عشت فيها، ومخطوط

«موكب الظلال» المكتوب على الآلة الكاتبة لا يزال في قاع أحد الصناديق، على رجاء أن أتكرّم وأنفض عنه الغبار وألقي عليه نظرة. كنت أذكره بين الحين والآخر، شاعرًا بشيء من وخز الضمير. على سبيل المثال، خلال إقامتي في برلين عام 1991، خطرت لي إمكانية تقديم مُقتطَف من العمل لإدراجه في الملف الذي أفردته لي إحدى المجلات الألمانية. ولكنَّ المخطوط لم يكُن في متناول يدي آنذاك. بعد مضي أعوام، في حديث دار بيني وبين واحد من الناشرين الذين يتولُّون إصدار أعمالي في الولايات المُتَّحدة الأمريكية، وبينما نحن على المائدة في مدينة نيويورك، نستحضر الحقبة الفرانكية[1]، طرحت موضوع كتابي الذي لم يُنشَر بعد، والذي قد يُفكِّر المرء فيه على أنه خطيئة من خطايا الشباب حبيسة المطهر. ومنذ أكثر من عام بقليل، خلال حديث جمعني بالناشرين الفرنسيِّين في باريس، انبثق «الموكب» من وسط الظلال، فأطلَّ على حديثنا وأيقظ اهتمامًا لم أدرِ في حينه أني سوف أشاطرهم إياه.

مضت بضعة شهور بعد ذلك الحديث الذي دار في باريس، على المائدة أيضًا، وإذا ببعض ذكريات تاموغا البعيدة تتسلَّل إلى ذاكرة واحد من شخوص الرواية التي أكتبها الآن (هو الآخر اقتُلِعت جذوره، مثل سائق التاكسي المذكور آنفًا). عندئذ قلت في نفسي إن من واجبي زيارة تاموغا مرةً أخرى أنا الآخر. ولأول مرة منذ عام 1970، شرعت في قراءة «موكب الظلال»، وإن لم تخلُ قراءتي من الهواجس. لم أشعر بالحنان الأبوي، ولا بالاشتياق، ولا بالمازوخية الزائفة التطهيرية، ولا بالفتور الرصين. فأنا الآن شخص آخر، كاتب آخر، ما زال يحمل آثار

---

(1) نسبة إلى فرانثيسكو فرانكو (1892 – 1975): الدكتاتور العسكري الذي فرض حكمه على إسبانيا بعد الحرب الأهلية.

المنعطفات والمنعرجات التي أورثه إياها زمنه، بطبيعة الحال. أو كما يقول ميلالياس، بطل رواية «لاربا»، بعبارة مدهشة: «أنا ما أنا عليه اليوم...». في الواقع، لم يترك لي «موكب الظلال» إلا خيارًا وحيدًا بعد الزمن الطويل الذي مضى، أن أكون قارءه. وهكذا، لم أملك حذف ولا إضافة أي شيء. ومن دواعي سروري أن الكتاب لم يتحوَّل إلى «موكب ظلال» مختلف، يشتمل على إضافات وتعديلات زيدَت في غير أوانها على نصٍّ لكاتب غير الكاتب الذي صرت إليه اليوم.

في «موكب الظلال»، أُقدِّر على وجه الخصوص موكبَ الشكل والأسلوب الذي حاولت التوفيق بينه وبين الكتابة منذ ذلك الوقت. فضلًا عن أهمية الشخوص في النصِّ السردي، وذلك غرام آخر من تلك الغراميات التي تشدُّ وثاق المرء وتفضحه، ويرويها الكاتب ليضع نفسه في مكان الآخر.

أفرغ من كتابة هذه الأسطر، فأرى من نافذتي سفينة شحن تعبر نهر السين، قبالة جزيرة سانت مارتين، تدنو من ضفاف بلدة ڤيتوي الصغيرة ثم تغيب عند منعطف آخر من منعطفات النهر، على مقربة من بيت مونيه العتيق. لقد درست مجرى نهر السين بتأنٍّ، ويمكنني التوقُّع بأن السفينة سوف تمرُّ لاحقًا بجناح فلوبير، في كرواس، قرب روان، ثم تُفتِّش عن المصبِّ وصولًا إلى البحر، وبعد ساعات طوال وأمواج كثيرة، لعلَّها تمرُّ قرب ضفاف تاموغا، التي كانت هي ضفاف الموت أيضًا، مراتٍ كثيرةً.

خ. ر.
19 نوفمبر، 2007

موكب الظلال

(رواية تاموغا)

1

قصة مورتيس

كان ذلك في أواخر سبتمبر، وبوادر السُّبات الخريفي تلوح في الأفق، والساعات تمرُّ أشد بطئًا، والوقت يبدو راكدًا كالمياه الحزينة، مياه أهوار تاموغا.

قالوا إنه «مسافر»، أو هكذا خطر لهم، وهم لا يعيرون أمره من الاهتمام الكثير، جميع أولئك (الضجرين، العاطلين) الذين كانوا يلتقون في المحطة عند المغيب، حين وقعت أبصارهم على الحقيبة الهائلة، متبوعةً بذلك الرجل القصير القامة، الذي مال بطريقة هزلية، محاولًا جرَّ الحقيبة على رصيف القطار. قال واحدٌ من أفراد الجمع مازحًا، حتى ينعش الحديث الخامد: «إنه مثلٍ خنفساء الروث!». ظلّوا ينظرون إليه بضع لحظات، من دون أن يُكلِّف أحدهم نفسه بإضافة تعقيب آخر، وقد اعتراهم جميعًا شعور طفيف بالحنين والفتور بعد رؤية القطار وهو يغيب عن الأنظار تحت المطر الذي لا ينتهي.

أما ذلك الرجل، ذلك الغريب عن المكان، فلعلّه لم يعرف يومًا لماذا وقع اختياره على تلك البلدة. أو لعلَّه لم يختَرها بنفسه، في واقع الأمر: بل اختارها الحظ، أو القدر، أو حسن الطالع، أو سوء الطالع، أو حتمية اللحظة.

في وقت لاحق عرفنا أنه قد ضرب موعدًا لامرأة -ما زالت شابة، بها مسحة من الجمال، يشي مظهرها بأنها قد ترمّلت حديثًا-، كانت هي نسيبته. أخبرنا كاردونا، مأمور القسم، بقصة الهروب، وبتلك الحكاية الغرامية التي لا تُعقَل. خضعت النسيبة لاستجواب مُطوَّل على يد المأمور، في حزن، ولكن بهدوء، مزهوةً بحبِّها، وديعةً، وقد عجزت عن التصديق في النهاية، ولم تعُد تأبه لأي شيء، أو لأي شخص. وهكذا عرفنا أن اسمه مورتيس، وأنه كان مُمثِّلًا تجاريًّا، على مشارف الخمسين من العمر، مُتزوِّجًا، له خمسة أبناء وماضٍ لا تشوبه شائبة. كل ما يتعلّق به عادي، تافه، يبثُّ الوحشة في النفوس. ومع ذلك، يبدو وكأن مورتيس، ذلك الرجل الأقل حظًّا من الغموض في العالم بأسره، قد جاء إلى هذه البلدة وهدفه الوحيد أن يُقدِّم لنا عرضًا عبثيًّا في ظاهره.

من وجهة نظرنا، وطبقًا لما ذهب إليه فضولنا، بدأ الأمر برمَّته يوم ثلاثاء من شهر سبتمبر، في مطلع الخريف، يوم وصل إلى البلدة. من نافذة عربة الدرجة الثانية، راح مورتيس يتأمّل رصيف القطار الذي انهالت عليه زخّات المطر، واللافتة التي حال لونها وكاد ينمحي اثنان من حروفها، الـT والـM. وهكذا، فبدلًا من اسم TAMOGA ظهرَت كلمة A OGA[1]، في مصادفة غريبة. راح يتأمَّل أفقًا مُبهَمًا مُؤلَّفًا من السحب والقرميد. حينذاك، لا بد أنه قد رأى تلك البلدة حزينةً بالقدر الذي يسمح له بتحقيق أغراضه. والأرجح أن ما دفعه إلى الترجُّل من القطار في اللحظة الأخيرة هو التعب، والسأم، واليقين بأنه لم ينزل في هذه البلدة يومًا، وبأن أحدًا لن يتعرَّفه، وبأنه لم يُجرِّر الحقيبة الجلدية، التي لا تفارقه، عبر شوارع تاموغا من قبل، وبأنه لم يستعرض ابتسامته

(1) A OGA: تُنطَق مثل كلمة AHOGA، التي تعني «خنق» باللغة الإسبانية.

المهنيَّة في حوانيتها، زِد على ذلك اليقين والارتياح لعلمه بأنه لم يسبق له الاتكاء على منضدة العرض للحديث إلى واحدة من عوانس البلدة المعهودات عن الأشرطة والأزرار بشغف مكبوت، في سرية تليق بمن يُقدِّم عرضًا بذيئًا. كما يُحتمَل أن يكون قد انجذب إلى موقع البلدة، وقربها من الحدود (الأمر الذي ارتبنا فيه لاحقًا، عندما جاءت المرأة). ولعلَّه قد ركن منذ البداية إلى الغباء والفضول الجمعي وافتقارنا إلى الفطنة، وإن لم تكُن أيٌّ من هذه التكهُّنات صالحةً لتفسير خاتمة القصة، لو أن لها خاتمة. كما لا يُستبعَد احتمال إصابته بالجنون أو الذعر. أو لعلَّه وقع في حبائل لعبته، تلك الأكذوبة المستحيلة التي أراد أن يُصدِّقها.

وصل مورتيس إلى تاموغا في مطلع الخريف، كما قيل. وصل في يوم حزين مطير. ومع أنه لم يقضِ بيننا إلا ساعات قليلة، ما زالت ذكراه حاضرةً بقوة، ولا سيما بعد الحوادث الأخيرة. يُؤكِّد الكثيرون أنهم قد رأوه وبادلوه بضع كلمات. تحلَّى مورتيس بملكة التحوُّل، لأن كلًّا منَّا يذكره بطريقة مختلفة، ومن الجائز أن نكون كلُّنا على حق؛ فهو مبتهج، خجول، حزين، ساخر، متغطرس، محترم، مُتهكِّم، حاد، ودود. كان مورتيس جميع ما سبق، وجميع ما نقول عنه. وفي خاتمة المطاف، تبقى لنا دهشة القصة واستحالة سردها، لأن الكلمات فاقت الأحداث واقعيةً، ولأن القصة لا تستحق أن تُروَى ما لم تعجز الكلمات عن استيفاء معناها. كما تبقى لنا الحرية كي نطلق لخيالنا العنان، والحرية كي ننسب نوايا مُتعدِّدة متضاربة قاتمة، إلى ذلك الغريب الأقرب إلى قصر القامة والهزال والارتباك، ذلك الذي اختار تاموغا مسرحًا لاستعراضه. والآن، لا يعدو ذلك الرجل، مورتيس، أن يكون مُجرَّد كلمات وصورة مبهمة تبدأ في الاختلاط بين حنايا

الذاكرة: كان له وجه عريض، ترابي، باهت القسمات، رخو، كما لو أنه معجون بالطين، وعينان محمرَّتان، وثغر يشبه الندبة، وصوت رتيب خارج من الأنف، يتكسَّر أحيانًا وكأنه خرير عميق آتٍ من المياه الجارية في المواسير. رجل كغيره من الرجال، يرتدي بدلةً مُجعَّدةً بنيَّة اللون ومعطفًا يبدو كبيرًا عليه، في غير أناقة ولا إهمال مفرط. هكذا يحضر مورتيس في الذاكرة. ولا بد أن دون إليو، ناظر المحطة، قد رآه على تلك الحال منذ الوهلة الأولى.

في وقت لاحق، قال دون إليو العجوز: «إن المرء يألف غرابة الأطوار بصنوفها كافة، ولا سيما بعد الأعوام الطوال التي أمضيتُها في محطة حدودية كهذه. ولكن لا شكَّ أن ذلك الرجل كان مخبولًا، يعاني من قصور في قواه العقلية. وإلا، فتأمَّلوا بأنفسكم: جاء في قطار التاسعة عشرة وخمس عشرة دقيقة، الذي وصل في موعده تقريبًا مساء ذلك اليوم. القطار المذكور يتوقَّف خمس دقائق في هذه المحطة دائمًا، وهي مهلة كافية. ما كدتُ أعطي إشارة التحرُّك، حتى رأيت ذلك الرجل أمامي مباشرةً، رأيته يهبُّ من مقعده ويهرع نحو الممر مجرجرًا حقيبته. ترجَّل والقطار منطلق. تُراه سهوًا؟ حسنًا، اسمعوا إذن: قبل أن يترجَّل من القطار بنصف دقيقة، كان ينظر من النافذة مطمئنًّا. راح ينظر إلى المسافرين، ثم إليَّ، وإلى المحطة، بينما هو يُدخِّن في غاية الهدوء، وكأنه في سبيله إلى وجهة أخرى، ولا يشغله البتة أن يكون اسم هذه المحطة تاموغا، كما جاء في اللافتة الضخمة المُعلَّقة أمام عينيه. سمع جرس المحطة، كما لو أنه قد سمع جرس القداس الإلهي، وإذا به في اللحظة الأخيرة يُعجِّل بالقفز من القطار المُتحرِّك، حاملًا حقيبته وكل شيء. كاد عنقه ينكسر. لو أنكم رأيتموه: واقفًا على الرصيف، وكأنه قد انهمر من السماء، مُتخشِّبًا كالفزَّاعة!».

وعلى كل حال، فهو لم يبقَ مُتخشّبًا كالتمثال إلى الأبد: بل إنه فتّش عن البوابة الرئيسية وخرج إلى المطر، وإلى الريح المفعمة بالتحدي، ريح تاموغا. رآه سائقو سيارات الأجرة الضجرون في سياراتهم أمام المحطة وهو يجتاز الساحة، فلم يعقدوا آمالًا. بإيماءةٍ رفض الخدمات التي عرضها عليه الحمَّالون، ومضى يجرجر حقيبته مُتّجهًا صوب الحافلة التي تنتظر تحت أشجار الدُّلْب. جلس قريبًا من المسافرين القلائل على متن الحافلة المتهالكة، وفي ضجر شرع يتأمَّل المطر والساحة وأشجار الدُّلْب، التي انسابت منها خيوط المياه، والثكنة المهيبة، على مقربة من الطريق، حيث أعلنت لافتة مكتوبة بالأحمر: «أهلًا بك في تاموغا!»، حتى وقف أمامه مانكو غوميث[1]، مُحصِّل الأجرة. طبقًا لما رواه غوميث، بدا الغريب متعبًا، أو في فترة النقاهة، وكأنه قد سافر طويلًا، أو خرج من المستشفى لتوِّه. جفَّف وجهه بمنديل ونفض كتفيه المُخضَّلتين بماء المطر. سأل عن ثمن التذكرة، وعن المسافة إلى البلدة. ثم تقبَّل المعلومات بارتياح، وكأنه في عجلة من أمره، وكأن المسيرة المُقدَّرة بثلاثة كيلومترات لا تعدو أن تكون شرًّا هيِّنًا. استغرق في التحقُّق من التذكرة، وكأن تلك الورَيْقة الوردية تستحق الفضول، تلك التي جاء فيها: «خدمة الحافلات / تاموغا-المحطة أو المحطة-تاموغا». بعد برهة، رفع ناظريه سائلًا:

- لعلَّك تستطيع أن تفيدني... وتدلَّني على نزل أو فندق لا يسكنه الكثير من حشرات البقِّ والبراغيث.

قالها مبتسمًا للمُحصِّل.

روى غوميث قائلًا: «أشرتُ عليه بـلندن. لا أدري لذلك سببًا، ولكني استلطفتُ الرجل. ربما لأنه مختلف عن المسافرين الذين

---

(1) جدير بالذكر أن «مانكو» تعني صاحب اليد المبتورة باللغة الإسبانية.

يحضرون إلى هذه الأنحاء. لأنه ناولني القطع النقدية في يدي اليسرى، ولم يبهت لمرأى موضع البتر، وتقبَّل بعفوية أنه ما دام المُحصِّل لا يسمح لأحد بالتهرُّب من الدفع، فلا بأس إن كان أبتَر اليد، أو الساق. ثم قال لي «أشكرك»، وألصق وجهه بزجاج النافذة، وطفق ينظر إلى الأهوار طوال الوقت، حتى وصلنا إلى البلدة».

نزل في لندن، ودوَّن اسمه وبياناته كاملة في سجل الفندق، مُتحمِّلًا تلك النظرة الصفيقة، نظرة دونيا ميلاغروس، التي عكفت على الحياكة وقد تربَّعت على عرشها -الكرسي المُتحرِّك- خلف منضدة الاستقبال، كما هو دأبها. (بعاطفة مُرهَفة، يظنُّ بعضنا أن دونيا ميلاغروس قد أنشأت الفندق، لا لمُجرَّد أن تبرهن لجميع سكان تاموغا على قوتها وقدرتها، وعلى أنها ليست بالمرأة العاجزة التي قد تقبل الشفقة بأي حال من الأحوال، بل إنها -فوق ذلك- كانت تأمل سرًّا أن يتحلَّى زوجها بالجرأة المُفعَمة بالحنين حتى يعود إلى تاموغا. كان زوجها قد هجرها وشهر العسل لا يزال في أوجه، حين تعرَّضت ميلاغروس لإصابة في العمود الفقري. هجرها مذعورًا مما قد يحلّ به: وهو لا وظيفة له ولا مال آنذاك، زِد على ذلك عجزه عن تحمُّل طباع زوجته الغضوب يومًا آخر. لا بد أنه، في لحظة من لحظات الهلع واليقظة، حدس بالمستقبل الجحيمي الذي هو مقبل عليه. كانا يعيشان آنذاك بحيٍّ البرتغاليين، في بيت يملكه خال دونيا ميلاغروس العازب، العجوز، البخيل، غريب الأطوار، الذي تعهَّد بأن يترك إرثه كاملًا لابنة شقيقته إن هي شملته برعايتها متى حانت ساعة الموت -لا شك أنه قد تعهَّد لنفسه بأن يكون موته بطيئًا شاقًّا، وهو الذي استحوذت عليه رغبة جارفة في البقاء، مثله كمثل جميع المُسنِّين- على الرغم من امتناعه القاطع عن التفريط في سنت واحد وهو على قيد الحياة. كانت أعوامًا

عصيبة. ذات نهار كغيره من النهارات، ودَّعها زوجها مثلما هو دأبه كل يوم، على مضض، وبابتسامة مُتكلَّفة، فقال: «أنا ذاهب إلى المرفأ. لقد وصلت سفينة إنجليزية». كانت تلك آخر مرة تسمع فيها صوت زوجها. بعد زمن يسير، مات خالها العجوز، وكأنه يتحيَّن هرب زوج ميلاغروس حتى يغمض عينيه في سلام. أما هي، فاتَّخذت قرارها بأن تقيم فندقًا بما ورثته عن خالها من نقود، متجاهلةً بذلك أولئك الذين أشاروا عليها بأن تعيش على ريع الأملاك. ومنذ ذلك الحين، تمكث دونيا ميلاغروس في بهو الفندق طوال الوقت، فضوليةً، يقظةً، مستندةً -في كرسيها المُتحرِّك- إلى الأمل، وإلى هاجس قديم حدَّثها بأنه لو استقرَّ زوجها على الرجوع يومًا، فلربما نزل في لندن، مُتخليًا عن حرصه شأن أكثر الغرباء، الذين يجتذبهم اسم الفندق الكوزموبوليتاني، من دون أن تساوره الظنون بأن مومياء العروس تترقَّبه فيما هي تغزل خيوط الثأر وتحلُّها. كانت تمعن التحديق إلى حد الوقاحة في كل من يصل من المسافرين، في محاولة للمقارنة بين وجوههم وقسماتٍ بدأ يغشاها الضباب في مُسوَّدات الذاكرة القديمة، أو لعلَّها ببساطة كانت تحاول أن تُخمِّن مدى قدرة الواصلين على الوفاء بالديون).

وهكذا، تحمَّل مورتيس وخزات عينَي دونيا ميلاغروس، طالبًا حجرةً لفرد واحد مُلحَقةً بحمَّام، وقال إنه لا يدري كم من الوقت سوف يبقى في تاموغا. وبينما هو يفرغ من تعبئة البيانات قال: «يومًا، أو يومين، أو أسبوعًا. ذلك رهن بمجريات الأمور». ثم أردف، وهو يغمز لها بعينه، في محاولة منه لإلقاء دعابة لم تُقدِّرها العجوز: «أو ربما أبقى هنا مدى الحياة».

بعد ذلك، يأتي التقرير المُسهَب الذي أفاد به ألثيدِس، واحد من أبناء دونيا ميلاغروس في المعمودية، أولئك الذين لا يُحصَى

لهم عدد. ألثيِدس، الذي يحشر جسده في بدلته السوداء المعهودة، بأسلوبه الجنائزي الخدوم أبدًا، ولفتاته المُرهَفة الخليقة بمُخنَّث، وحديثه الذي يقطر بلاغةً معسولةً تليق بطالب قديم في معهد لاهوتي، ورأسه اللامع، المُعطَّر، الدبق. ظهر ألثيِدس في المكان حتى يحمل الحقيبة عن الغريب، بعد إصرار فاتر خدوم، ويرشده إلى حجرته في الطابق الأول.

في وقت لاحق، هوَّل ألثيِدس الأمر قائلًا: «كانت الحقيبة ثقيلةً وكأنها تحوي كتبًا أو رصاصًا أو جثَّة».

قال مورتيس:

- حسنًا، يمكنك أن تتركها فوق السرير.

لم يبدُ مستاءً من الحجرة الضئيلة، القاتمة، الواقعة في القسم الخلفي من الفندق.

أزاح الستائر التي حال لونها، ثم أطلَّ من النافذة، على ارتفاع يسير جدًّا، كان في وسعه رؤية الأرض الملأى بالبرك الضحلة وتلال القمامة، وأمامه ترامت دور البرتغاليين وأكواخهم، تليها الرُّبى الجرداء التي اكتسحتها الريح، والمياه الساكنة الرمادية تمسح الأفق بلسانها.

بعد ذلك، طفق يدور في أنحاء الحجرة بضع مرات. مرَّر يده بحذر على الموضع المُمزَّق من ورق الحائط، وهو يتوقَّع أن يكتشف عشًّا يأوي حشرات البقِّ، أو ما هو أسوأ. فتح خزانة الثياب، مُطلًّا برأسه، وبحركة من يده أصدرت المشاجب المعدنية المُعلَّقة في الخزانة رنينًا تتابعيًّا حزينًا. تابع فحصه الدقيق: فذهب إلى الحمام، وشدَّ ذراع الطرد، ثم عاد خطوة إلى الوراء حين تناهى إلى سمعه خرير الماء المُقبِض. أضاء المصباح، وتأمَّل نفسه في المرآة بضع ثوانٍ، مسح بأصابعه على وجنتيه، وكأنه في حاجة إلى لمس ذقنه كي يتأكَّد من أنه لم يحلقه منذ

بضعة أيام. وأخيرًا، فتح الصنبورين، ثم قال، كمن اكتشف أنه تعرَّض للنصب من فوره:

- لا ماء ساخن.

فتنهَّد ألثيدِس، وقد ضجر من فرط ما ردَّد الأسطوانة نفسها منذ ثمانية أعوام:

- في النهار وحسب.

عاد إلى المخدع، وفي قناعة تأكَّد من وجود مقعدين من الخيزران، ومصباح صغير محمول فوق الطاولة المجاورة للفراش، ومنفضة سجائر ضخمة من البورسلين، وقنينة ماء مُغطَّاة بكوب. ربما كانت محاولةً منه ليُظهِر أنه شخص مغالٍ في طلباته، يعتزم قضاء بضعة أيام في تاموغا، ويريد انتقاء مكان وثير. سأله ألثيدِس، مُتأهِّبًا لكسب الإكرامية:

- خردوات أم أنسجة؟

استغرق في الرد على السؤال بينما هو يستكشف بقلق آثار الحرق على مفرش السرير، وبقعة النشع التي تركتها الرطوبة راسمةً على الجدار سرطانًا هائلًا، على أهبة السقوط فوق رأس الفراش.

وأخيرًا، أدلى بردِّه كارهًا، مُتملِّصًا، مُتحدِّثًا إلى النافذة، أو إلى غير أحد:

- أتاجر في القليل من كل شيء.

فاقترح ألثيدِس، حتى يدخل في صميم الموضوع أخيرًا:

- يمكنني أن أُزوِّدك بالمعلومات اللازمة عن التجارة في هذا الميدان.

في وقت لاحق، اشتكى ألثيدِس قائلًا: «لم يبدُ عليه الاهتمام، بل إنه أزاح بقدمه طرف البساط المُجعَّد ثم عاد وقد ظهرت عليه أمارات الضيق وما يشبه النفور، وكأنني قد ورَّطته لتوِّي في تجارة قذرة».

قلت له، بنبرة تليق بالأسرار:

- انظر، انظر يا سيدي. لبعض المتاجر هنا واجهات ضخمة رائعة، ولكن البضائع في تلك الواجهات هي نفسها، لم تتبدَّل منذ نصف قرن. لا تحسبني أبالغ. كيف يكسبون قوتهم؟ لا تسألني؛ فلا أحد يدري. لدينا متاجر هنا، في وسط البلدة (أجل، لن تلبث أن تراها)، مُزيَّنة بمرايا هائلة، ولافتات تقول «أبناء فلان»، أو «ورثة فلان»، أو «منشأة تأسَّست عام 1860»، أو «آخر صيحات باريس»، كل شيء في غاية العراقة! ثم تدخل إلى المكان فلا تجد فيه سوى الغبار، وفضلات الذباب، وبضائع طال عليها الزمن، أكلتها العثّة، أو كادت تتعفَّن. صحيح أن تلك المتاجر تبيع في الأعياد قليلًا، حين يحضر القرويون إلى تاموغا، قادمين من باراموس وسانتا كروث، ويحضر الصيادون من بروبيدينثيا ومرفأ أنغرا. وهذا كل ما في الأمر. صدِّقني: إنها متاجر ميتة. يهدر المرء وقته إذا حاول أن يُقدِّم لها الجديد من البضائع، والصيحات الأخيرة.

«وهنا أتوقَّف عن الحديث دائمًا، وقفةً حاسمة، قبل أن أقترح أسماء التجَّار المُوفَّقين، من أصحاب الهمَّة. ولكن الرجل لم يتأثَّر بالخطاب الذي أهدرته عليه. بل إنه اكتفى بالابتسام وقد ارتسمت على وجهه أمارات الأسى، وكأني به يقول «وما العمل!»...».

بَيْد أن مورتيس قال، كالمعتذر:

- حسنًا، حسنًا، لستُ في حاجة إلى دليل... فأنا أحبُّ استكشاف ساحة المعركة أولًا، وتخمين المواضع التي يترقَّبني فيها الحظُّ أو التعاسة، أليس كذلك؟

«كيف يتصرَّف المرء مع رجل كهذا! عندئذ ما عدت أُفكِّر في الإكرامية، وإنما في الاستعلاء والاستخفاف اللذين لقيتهما من ذلك

الرجل. وهنا بدأت تتسلّل إلى نفسي الظنون. لقد سئمت من فرط ما عاملت المسافرين، فوجدتهم جميعًا يستحوذ عليهم الفضول، ولا سيما حين يصل الواحد منهم لأول مرة إلى بلدة لا يعرف فيها أحدًا. أرِني واحدًا منهم يفتقر إلى الفضول! ولكنه ما لبث أن حاول الاعتذار؛ فأبرز من جيبه ورقةً ماليةً مُجعَّدةً -بقيمة خمسة وعشرين- وفردها، ثم ناولني إياها باسمًا».



وقال على سبيل الوداع:

- سنرى غدًا.

«كنت في الردهة بالفعل حين جاءني مرةً أخرى صوته خارجًا من أنفه، مُتعَبًا هادئًا».

- في المساء، في الليل...

ثم تنحنح وخطا بجانبه بضع خطوات هزلية، وأردف سائلًا:

- ما الذي يمكن فعله في هذه البلدة؟

«أها! إذن فهو من أولئك الذين يضمرون ما لا يُظهِرون. لا شكَّ أنه طائر ليلي».

فقلت له بلا ضغينة ولا رغبة في الكذب:

- إنها بلدة مضجرة. ولكن لدينا ثلاث دور سينما، طبعًا. واحدة منها فحسب هي التي تفتح أبوابها أيام الثلاثاء، مودِرنو. اليوم يُعرَض فيلم محلي، «معشوقة لا تُقاوَم»، أو شيء من هذا القبيل. لا أذكر جيدًا. لدينا عدد أكبر مما ينبغي من الحانات والخمَّارات. فضلًا عن مرقصين يفتحان أبوابهما أيام السبت والأحد. ولدينا تيرّانوبا، الذي يفتح أبوابه يوميًّا حتى مطلع الفجر.

«عند ذاك، جعل ينصت إليَّ بانتباه، ومن خلال كلماتي، حاول أن يرى بعين الخيال مدى التعاسة التي قد تغرق فيها بلدة ساحلية كهذه

بعد انقضاء موسم الصيف. فرغت من تعداد مباهج تاموغا، وقد خامرني شعور بأني بدأت في الانتقام منه، وبأنه على وشك أن يشعر بثقل الساعات، ويدرك إلى أي مدى قد يطول الليل وتغمره الوحشة في ذلك المطهر».

- في ما مضى، كانت لدينا دور حافلة بالمباهج على ضفاف النهر (شرعت أتذكَّر وقد أُصِبت بعدوى الحنين، ورحتُ أُفكِّر في ماتِرنو القزم حين خيَّم برفقة فتياته الخمس، «العذراوات إلى الأبد»، وفي يانصيب العشق الذي كان يُقام وسط أطلال المصنع العتيق، مصنع الأطعمة المُملَّحة، في الأيام الخوالي، حين كان مرسى شحن المعادن مستمرًّا في العمل). ولكن تلك الدور أُقفِلَت الآن ولم تبقَ لنا سوى دار واحدة من دور اللهو، تيرَّانوبا. هناك، يمكنك الاستماع إلى الموسيقى، والرقص، وتناول بضع كؤوس من الشراب، والعثور على رفيقة، ما لم يُؤنِّبك ضميرك أكثر مما ينبغي. وعلى الرغم من ذلك، فالأمر لا يخلو أبدًا من ذلك العزاء المُتمثِّل في رؤية وجه ضجِر بقدر وجهك. أو في أحسن الأحوال، سترجع إلى الفندق تصحبك ذكرى امرأة ليست مفرطة البشاعة. ولكن، بيني وبينك، لا أستطيع أن أضمن لك هذا يا سيدي.

وفي وقت لاحق، بعد أن انقضى كل شيء في ظاهر الأمر، حاول المأمور كاردونا إعادة تمثيل درب الصليب[1] الذي قطعه ذلك الغريب، من باب الروتين، منساقًا وراء هوس ورغبة جارفة يدفعانه إلى ترتيب الأمور ترتيبًا منطقيًا، حتى وإن خلت من أدنى أثر للمنطق، محاولًا ألا يترك ثغرةً واحدةً في الزمن القصير الذي أمضاه مورتيس معنا.

---

(1) درب الصليب: طبقًا للعقيدة المسيحية، هو الدرب الذي قطعه يسوع المسيح حاملًا الصليب قبل صلبه.

لا شك أن مورتيس مكث في حجرة الفندق نحو ساعتين، مُمدَّدًا على الفراش (حيث ترك جسده على مفرش السرير أثرًا سوف يبقى حتى نهار اليوم التالي، دليلًا على أنه لم يمضِ ليلته في لندن، وأنه لم يكُن شبحًا، وأنه كان على قيد الوجود في تاموغا حقًّا طوال ساعات)، حيث جعل يجترُّ الآلام والمشروعات، ويسكر بالأحلام، ويتهدهد على وقع الخوف، منصتًا إلى صوت المطر المتساقط على النوافذ الزجاجية. لعلَّه طفق يُفكِّر، وقد ولَّى وجهه شطر الجدار: «هأنذا في هذه البلدة، محاط بالمياه من كل جانب، وما زلت لا أدري ماذا أنا فاعل».

من المُحتمَل أن يكون قد اتَّخذ قراره حين ترك حجرته، أن يكون قد أدرك -بلا ألم ولا ضغينة- أنه ما زال يملك بعض الوقت قبل تقديم الفصل الأخير، وأنه ما زال في حاجة إلى الظهور أمام الحاضرين، واغتنام الدَّفعة الأخيرة لئلَّا يُضطرَّ إلى الاستعانة بالمُلقِّن، وتقديم التحية مع إسدال الستار.

بعد ذلك، لا بد أنه ذهب من الفندق مباشرةً إلى مطعم پرادو في جادة البرتغال. لعلَّه استسلم لغواية اللافتة الصفراء التي أعلنت كذبًا: «مطعم پرادو. مُتخصِّصون في ثمار البحر بكل صنوفها»، لعلَّه أحسَّ بالجوع، أو وجدها ساعةً ملائمةً لتناول العشاء والتظاهر بالجوع. في وقت لاحق، أفاد پرادو مع مراعاة «الدقَّة» أنه: «طلب سلاطة، وشريحةً من لحم الخاصرة مع البطاطس المقلية، وفاكهة، ونصف قنينة من النبيذ الوردي. ثم أكل على عجل، وهو يغصُّ بالطعام. وبين لقمة وأخرى، أخذ يختلس النظر إلى الشقراء ذات الأرداف البارزة الظاهرة على التقويم المُعلَّق أمامه. ثم إنه دفع الحساب من دون أن يترك إكرامية، وسألني أين يمكنه العثور على صيدلية مفتوحة في مثل هذه الساعة».

شُوهِد في ساحة البلدية، في أقصى الطرف المقابل من البلدة، حيث بادر الخفيرَ سائلًا عن الصيدلية المناوبة، وسمح له بأن يدلَّه على الطريق حتى بلغ الناصية، وهناك وقف تحت اللافتة المعدنية التي جاء فيها «صيدلية روتشا»، وقبل أن يدلف إلى المكان، ألقى نظرة على الواجهتين وعلى الصيدلية المضاءة من الداخل.

استقبله سيبيرينو، عامل الصيدلية، الذي روى قائلًا: «طلب مني بضعة أقراص مُنوِّمة، وإن ليس قبل أن يلقي نظرة على الأرفف بفضول، وكأنه مُهتَمٌّ بالقوارير المصنوعة من البورسلين بما عليها من حروف مُذهَّبة، أو كأنه لم يستقرَّ بعد على ما يحتاج إليه. ثم إنه وقف ساكنًا أمام منضدة العرض، مُتَّكئًا بيديه على الزجاج، ومال برأسه، في لفتة تنمُّ عن الشك أو محاولة جاهدة لتذكُّر شيء ما. بدا عليه الضجر والرغبة في الحديث. طلب مني بضعة أقراص تساعده على الاستغراق في النوم، «مثل القتيل»، كما أردف بوجه منقبض في سخرية. أعتقد بأنه لم يألف تناول الأقراص المُنوِّمة، وإلا طلب مني صنفًا بعينه. قدَّم لي سيجارةً وبدأ يشكو الطقس قائلًا إن قانون الأحياء البحت يقضي بأن يتنفَّس أهل هذه المنطقة بالخياشيم! سألني عن عدد الصيدليات في البلدة، وعما إذا كان أهل البلدة قد بلغوا من السذاجة والغفلة حدًّا يسمح لهم بالإيمان بالأدوية والاستعانة على الموت بالأطباء. ثم إنه سألني مازحًا، في خبث، راسمًا على وجهه ذلك التعبير المراوغ مرة أخرى، وقد لوى شفتيه... سألني عما إذا كانت المنتجات المصنوعة من المطَّاط والمعاطف الإنجليزية تلقى قبولًا كبيرًا في الأقاليم والأمكنة الشديدة الرطوبة كهذا».

والآن، حان موعد أغنية الحب. قبل الذهاب إلى الصيدلية، أو بعده، عرَّج مورتيس على مركز الاتصالات حتى يضرب موعدًا لنسيبته،

ويستدعيها إلى تاموغا. في البدء، ارتبنا في شهادة عاملة التليفون، سنيوريتا سيرينا (الموشكة على التقاعد، التي استحوذ الخبل على عقلها تمامًا)، وحسبناها تحاول أن تنقل إلينا عدوى نوبات الهذيان التي تصيبها، أو تبلغنا بواحدة من تلك الشائعات المذهلة المُفعَمة بالحيوية التي تسمعها في جلسات تحضير الأرواح عبر التليفون. بعد موت شقيقتها بزمن يسير، اكتشفت سنيوريتا سيرينا أن الموتى -ولا سيما الأصدقاء والأقرباء منهم- يحاولون الاتصال بها عبر أسلاك التليفون، ومن ذلك الحين صارت حياتها مرتهنة بتلك المونولوغات المُطوَّلة، وبتلك الأخبار العجيبة الفريدة التي يحملها إليها موتى تاموغا، مدفوعةً إلى ذلك بالإيمان بالخرافة والسذاجة الشعبية، ولا سيما كلمات الكاهن نفسه، الأب لوثانو، الذي أعلن من مكانه على المنبر -في وعظة مشهودة، جديرة بالرثاء- أن أرواح المطهر قادرة على الاستعانة بوسائل التواصل العصرية حتى يبعثوا إلينا برسائلهم على أكمل وجه.

وهكذا، لم نُصدِّق سنيوريتا سيرينا، بل حسبناها أصيبت بنوبة أخرى من نوبات الهذيان حين روَت لنا أن مورتيس كان في مركز الاتصالات تلك الليلة، وأنه طلب إجراء مكالمة. قالت سنيوريتا سيرينا، وهي تضفي طابعًا ميلودراميًّا على ما جرى: «في وقت متأخر جدًّا، وبينما كنت أتلو الصلوات الأخيرة... لا يسعني تذكُّر الساعة على وجه التحديد... سمعت وقع خطى على الدَّرَج، (تاك-تاك)، ora pro nobis[1]، فدخل إلى المكان وكأنه طيف، أشدَّ بياضًا من الجدار، مُبلَّلًا بالكامل، وانسابت المياه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وتهدَّل شعره على عينيه، وراح يتلمَّس الهواء بيديه الممدودتين، وقد غطَّى الوحل يديه وذراعيه تمامًا، حتى صارت مروعة في قذارتها».

(1) عبارة لاتينية تعني «صلِّي لأجلنا»، وردَت في صلاة «السلام عليك يا مريم».

ثم أردفت بقولها: «كان في حالة يُرثَى لها، يتكلَّم بمشقة، ويغصُّ مُطلِقًا أصواتًا من حلقه، (غلو-غلو)، فخلته مخمورًا على وشك السقوط أرضًا. أخذ يتوسَّل إليّ مُتلعثمًا: «سـسس، إنها مسألة عاااااااجلة جدًّااا»».

في وقت لاحق، تمكَّنت سنيوريتا سيرينا من سماع مورتيس وهو يطلب من شخص آخر أن يحضر للقائه في تاموغا. أخذ يُردِّد مُتلعثمًا: «... أريـ... أريد منكِ... أن تأتي وتنـ... وتنظري إلى عينَيَّ وتقـ... وتقولي لي الآن... إنك لا تـحـ... بِّينني». ومن الجانب الآخر جاء صوت بكاء حاد، متبوعًا بصوت أنثوي، رطب، قال في لجاجة: «انتظر، انتظر، انتظر»، قبل أن ينقطع الاتصال.

في وقت لاحق، أكَّدت على الأمر برمَّته تلك المرأة التي جاءت إلى تاموغا (نسيبة مورتيس).

كما عرفنا أن مورتيس كان في مقهى ميثكيتا، هناك حيث رآه باربوسا، نادل مقهى ميثكيتا، وهو يجتاز الباحة التي يكسوها التراب الأحمر في العاشرة تقريبًا، رآه يتفادى برك المياه الضحلة في حذر، ويمضي بجانبه، ويتوقَّف لتأمُّل التعريشة العارية والمقاعد المُكدَّسة على الجدار. لبث لحظات مُتردِّدًا، أو مُشوَّشًا، قبل أن يوارب باب المقهى الخلفي وينظر إلى الصالون الذي كاد يخلو من الجميع. لم يكُن هناك في تلك اللحظة إلا دونيا ماريا، العجوز نزيلة دار المُسنِّين، والنادل باربوسا الذي راح يجادلها، كما هو دأبهما في مثل هذه الساعة، ويأبى أن يُقدِّم لها الكأس الثانية، التي تشربها في آخر الأمر لا محالة. سأله النادل: «ماذا أُقدِّم لك؟». نظر مورتيس إلى العجوز، فإلى صدار النادل القذر، فإلى صفِّ القوارير، فإلى المرآة، مُتعبًا، أو شاردًا. وبينما هو يتَّكئ بمرفقيه على البار قال: «لا أدري». وأخيرًا

قال: «أعطني كأسًا من الكونياك وكوبًا من الماء». عند ذاك عادت دونيا ماريا إلى إصرارها: «صُبَّ لي كأسًا أخرى من شراب الأنيس»، قالتها وهي تدفع الكأس الخاوية إلى حافة البار. (كانت العجوز نزيلة دار المُسنِّين تتلقَّى معاشًا صغيرًا، وتُردِّد مزهوةً: «يرسله ابني إليَّ كل شهر»، حتى نرى أنها ليست وحيدة، ونرى أنها على بال الآخرين. ولكن، بحلول منتصف الشهر، يكون المال قد تبخَّر أو ذاب، وعندئذ يُقدِّم لها باربوسا كأسًا من الأنيس على الحساب كل يوم، علمًا منه أنه لن يتلقَّى ثمنها أبدًا، والأرجح أن دونيا ماريا لا تتردَّد على ميكيتا لتلبية حاجتها إلى تناول كأسٍ من الشراب، مجانًا، بقدر ما تفعل بحثًا عن تلك اللذة والعادة المُتمثِّلتين في مجادلة النادل ومشاهدته يرفض أولًا، حتى يُسلِّم في آخر الأمر).

طالب صوت العجوز اللاذع قائلًا:

- كأس أخرى من الأنيس.

روى لنا بارباروسا قائلًا: «أبيت، منزعجًا من استغلالها حضور الغريب، ظنًّا منها بأني لن أجادلها ولن أرفض لها الطلب أمام رجل غريب».

عند ذاك، تسنَّت لمورتيس فرصة التدخُّل: «قدِّم لها كأس الأنيس، قدِّم لها ما تريد. على حسابي». فقال باربوسا: «سوف يضرُّ بها ذلك يا سيدي. لقد شربت كأسًا هنا، ومن المُؤكَّد أنها شربت كأسين أو ثلاثًا في الطريق». فأجابه مورتيس قائلًا: «قدِّم للسيدة الشراب». ثم أومأ برأسه، في خجل أو صفاقة. ومال برأسه ناظرًا إلى الوجه المُجعَّد المُتشقِّق الذي تكسوه المساحيق، والعينين الصغيرتين المحتضرتين، وفراء الثعلب الأشعث القذر الذي أحاط بكتفَي العجوز الضامرتين. وهكذا قدَّم تقليدًا هزليًّا لمشهد من مشاهد الغزل، بالإيماءات

والابتسامات. ثم التفت إلى النادل قائلًا: «في عمر بعينه، تأتي على المرء لحظة لا يعود فيها شيء قادرًا على الإضرار به. فكل ما يسمح لنا بالبقاء على قيد الحياة حسن». ثم أردف مائلًا برأسه، خافضًا صوته: «أليس كذلك يا سيدتي؟». بعد ذلك استند إلى البار بظهره وراح يصغي إلى ثرثرة العجوز في تهذيب، وكأنه قد اتَّخذ قرارًا بمغازلتها.

بصبر، وابتسامة ودود، مُتظاهرًا بالاهتمام، راح يصغي إلى جميع مُبرِّراتها، ويومئ بحركة وئيدة مُتفهِّمة من رأسه ردًا على كل ما تقوله، حتى وإن كاد يخلو من المعنى. قالت إنها تقيم في دار المُسنِّين رغبةً منها في الاستقلال بنفسها: «يعيش أولادي بعيدًا، أرادوا مني الذهاب للعيش معهم. تصوَّر يا سيدي! أنا في بيتهم، حتى أصطدم بزوجات أولادي! كلَّا، كلَّا». راحت تُردِّد الأمر الذي صدَّقته من فرط ما روته، وقد خدعت نفسها بنبرتها المقنعة. «أنا يا سيدي لا أعيش من أجل شيء سوى تكريم ذكرى زوجي، الرجل الأوفر حظًّا من العشق في العالم بأسره. في ليالٍ كثيرة، بعد الانتهاء من العمل، كان يُشجِّعني بقوله: «هيا بنا نتسلَّى»، فنخرج لنرقص معًا. كان مولعًا بأنغام الفالس الفييني والشامبانيا الفرنسية، قادرًا على الرقص من دون أن يترك الكأس، وهي الرقصة التي كان يُسمِّيها فالس بنكهة الشامبانيا. ظلَّ يُحبّني كما أحبَّني في البدء، حتى بعد أن تجاوزنا عمر الشباب. إنه الشيء الذي لا أملك سواه يا سيدي: ذكرى زوجي».

عند ذاك، انحنى مورتيس مرة أخرى أمام العجوز: «سيدتي، أنعمي عليَّ بشرف مرافقتك، واسمحي لي بدعوتك إلى كأس من الشامبانيا».

قال باربوسا مصدومًا: «كان مُمثِّلًا كوميديًا يبحث عن التسلية، أو لعلَّه كان مجنونًا».

في وقت لاحق، قالت العجوز بحرارة: «كان نبيلًا، بل إنه أول رجل نبيل يطأ بقدميه أرض تاموغا».

تجدر الإشارة إلى ظهور مورتيس العابر اللاواقعي في تيرّانوبا، برفقة العجوز، التي كادت تلعب الخمر برأسها، وهو يحاول بكل جدية تقديم الفصل الأخير من مهزلة الحب والشفقة، ناظرًا حوله في تحدٍّ، محاولًا فرض المهابة على البحارة والمومسات، وهو يرافق العجوز إلى الطاولة ويطلب قنينةً من الشامبانيا الفرنسية بصوت عالٍ، في رصانة، وإن لم يُقدَّم إليهما سوى الشامبانيا الكتالانية. شرب نخب الأرملة، ناظرًا إليها من خلال الدخان، باسمًا، متجاهلًا صخب الموسيقى والقهقهات. بعد ذلك توجَّه إلى البار، فأسرَّ إلى الساقي بشيء في سمعه، ومرَّر إليه الإكرامية من دون أن يكفَّ عن الحديث، عازفًا عن النظر إلى وجه الساقي المذعور، ثم طلب منه أن يقطع موسيقى التشاتشاتشا المزعجة، ويستبدل بها مقطوعة فالس. من السهل أن يحكي المرء ما جرى، وإن كانت إعادة تمثيل الرقَّة المتنافرة والأجواء المذهلة، التي غلَّفت المشهد، تُعَدُّ ضربًا من المحال. ببطء، وبلطف مُفعَم بالحنان، اصطحب مورتيس المرأة العجوز إلى منصَّة الرقص، ووضع يديه حول خصرها بنعومة بالغة، ثم طفق يدور على وقع الموسيقى. أما هي، العجوز، المرتبكة في أول الأمر، فراحت تخطو بخفة ورشاقة متزايدة، وهي لا تكاد تمسُّ الأرض بقدميها، تاركةً نفسها لمورتيس يقودها، ولدوَّامة الموسيقى تُطوِّقها، بابتسامة منتشية وعينين مُغمَضتين، بين ذراعَي الرجل الجاد، الاحتفالي، وكأنه تشارلي تشابلن، ذلك الذي ما برح يدور أسرع فأسرع، ونساء تيرّانوبا وروّادها يُحدِّقون مندهشين في غبش المكان الخانق، ويحتمون بالضحك والذهول، ويفركون أعينهم متسائلين عمَّا إذا كان ما يرونه حقيقة، متسائلين عمَّا إذا كان في وسعهم رواية ما رأوا في اليوم التالي، بعد أن يفيقوا تمامًا، متسائلين عمَّا إذا كان هنالك من يمكنه التصديق.

وكان هذا كل شيء. هكذا شُوهِد مورتيس لآخر مرة. ولقد روَت دونيا ماريا لاحقًا للعجائز المعجبات المُتنهِّدات اللائي تحلَّقن حولها أنه رافقها حتى باب دار المُسنِّين وقال مُودِّعًا: «اسمحي لي بأن أطبع قبلةً على جبينك، وكأنك أمي أو حبيبتي الأولى، تخليدًا لذكرى هذه الليلة». وبعد الحوادث الأخيرة، يمكننا تصديق ما روَت، إذ لن يكون كذبًا من الأساس، حتى وإن لم يحدث يومًا.

وهذا كل ما في الأمر، إلى أن تحين لحظة ختام هذه القصة التي لم تكتمل. لم نعرف المزيد عنه، عن مورتيس، حتى وصلت المرأة المجهولة المذعورة ذات الشعر الأشقر والوجه المشدود، تلك التي سألت عن مورتيس في فندق لندن. حضرت على متن القطار نفسه الذي جاء بمورتيس قبل يومين، وصلت في الوقت المناسب كي تتعرَّف على الجثمان الذي ظهر قبيل ساعات جانحًا، مُغطًّى بالأعشاب البحرية، على شاطئ مرفأ أنغرا. تقبَّلت الخبر في ثبات، غير أنها رفضت قبول تلميحات كاردونا، المأمور. قالت إنه ضرب من المحال أن يكون قد انتحر الآن دونًا عن باقي الأوقات، الآن وقد اتَّصل بها، وكانا في سبيلهما إلى العيش معًا. بدت مزهوَّةً بحبِّها، الشيء الذي لم يبقَ لها سواه. أمعنت النظر إلى الجثمان المُمدَّد على المنضدة المصنوعة من الرخام في مستودع الجثث، قبل أن تطبع قبلةً على الوجه الذي أتت عليه السراطين. ربَّتت على الخصلات المتشابكة المُتهدِّلة على جبينه. عاودت إمعان النظر، وتقبيل المحجرين الخاويين. همست بشيء وقد ألصقت شفتيها بأذن الميت، ثم ربَّتت على الجثمان مرةً أخرى، حتى شعرت على كتفها بيد المأمور الودود، عند ذاك عادت إليه، في غاية الوقار، وقالت باقتضاب: «لا بد أنه حادث يا سيدي. لا تفسير آخر لما جرى».

ربما، أو ربما كان في وسعنا تقبُّل أكثر من تفسير واحد، أيِّ تفسير. وربما أمكن قبول ذلك الافتراض المُبهَم الذي أدلى به دكتور راي، الطبيب الشرعي، بعد تشريح الجثمان. إذ قال دكتور راي، مُتحدِّثًا إلى المأمور في تروٍّ:

- من الوارِد أن يكون هذا الرجل قد انتحر، أو تعرَّض لحادث، فزلَّت قدماه وسقط في الماء. لا أدري. فالموت غرقًا وارد في كلتا الحالتين. ومع ذلك، أعرف أنه كان محكومًا بالموت على كل حال، أعرف أنه كان مصابًا بسرطان في الرئة. لا أدري ما إذا عرف بمرضه أو اشتبه فيه، وإن كان ذلك منطقيًّا. لعلَّه جاء إلى تاموغا من أجل هذا الغرض، (لا تحفل بكلامي كثيرًا، سيدي المأمور). ما دام العيش هنا عسيرًا، في هذه البلدة، فهي أنسب للموت من أي مكان سواها.

2

الظلال

أفاقت على رائحة الدخان اللاذعة، بعد أن استغرقت في النوم وهي تتأمّل صورة زوجها. دونيا ساكرامِنتو أندريني تمضي حياتها في تأمُّل صور الأسرة العتيقة، منذ ما يربو على النصف قرن، فلا تكاد تفعل شيئًا آخر، بل إنها تقضي وقتها كاملًا حبيسة مخدعها، إلا في ما ندر، وبمشقّة تقطع تلك المسافة القصيرة الفاصلة بين فراشها والكرسي المجاور للطاولة ذات الموقد، مرتين كل يوم، في عذاب تخضع له مفاصلها التي سرى إليها العفن. تزايد شعورها بالوهن والارتباك. فصارت تبدأ في التهويم والنعاس بعد التأمُّل في أي صورة لبرهة من الوقت. في ما سبق، حتى الشتاء الماضي، كانت تنغمس في تأمُّل إحدى صور زوجها، مستغرقةً في غيبوبة تطول بالساعات. أما الآن، فسرعان ما يدركها التعب.

قرب المغيب، راحت في سبات على الكرسي، وبين يديها صورة سالبادور، زوجها. فتحت عينيها، فرأت عبر دموعها الدخان المتصاعد من مفرش الطاولة ذات الموقد. حاولت النهوض، فطقطقت عظام ذراعيها وساقيها مثل الحطب في النيران. لم تقوَ على الحركة. شُلَّت

وكأنما جسدها المُتيبِّس الأعجف قد غاص في الكرسي بعد ساعات طوال من الراحة. سرى الخدر إلى ساقيها. ومن خلال النافذة التي في خلفية الحجرة، استطاعت رؤية الشارع وأشجار المنتزه الكثيفة. اضطربت لحظاتٍ على الكرسي، فلم تقوَ على النهوض. وانزلق من على حجرها ألبوم الصور الثقيل الذي تتصفَّحه كل مساء. تأوَّهت في وهن:

- سالبادور. سالبادور، أين أنت؟

رأته من خلال سحابة الدخان، في أبهى حُلَّة، وقد ارتدى بدلةً من النسيج الرمادي، وصدارًا من الحرير تخالطه نقط سود. جعل يرنو إليها بعينيه الذاهلتين من على مسافة ضبابية، وانسدل شعره على جبينه. نظر إليها نظرةً مُتحجِّرة، تشي بالاستهانة، مبتسمًا، بينما راحت تعتصر الصورة بين أصابعها، عاجزةً عن مغادرة الكرسي، وهي تنتفض مُتأثِّرة بالسعال، وعيناها مغرورقتان بالدموع. بدأت تحسُّ بالاختناق. أما رأسها الضئيل الضامر فجعل يتمايل كالبندول فوق جذعها، مُشرئبًّا، مُتخشِّبًا على الكرسي. غشيها الدخان، وفي عينيها الشاخصتين إلى الدكنة تجلَّت أمارات الذهول، عينيها المفتوحتين وكأنهما ثقبين في وجه من الجلد المدبوغ المُغبَّر الذابل الذي يتعذَّر حساب عمره.

كانت طاعنةً في السن، لا أحد يدري كم تبلغ من العمر على وجه التحديد، حتى صار عمرها لغزًا ومحلَّ نقاش لدى ساكني تاموغا؛ فبينما أكَّد بعضهم أن دونيا ساكرامِنتو أندريني يزيد عمرها على المئة عام، جزم آخرون أنها لا تتجاوز الثمانين إلا قليلًا، وإن لم يرتَب أحد في أنها سوف تتمُّ المئة عام، بصحتها الحديدية المعهودة، على الرغم من غياب عقلها التام.

لقد دفنت نفسها وهي لا تزال على قيد الحياة، كالراهبة المنقطعة

عن العالم، في البيت الذي اقتناه والدها -ذلك التاجر الذي كوَّن ثروةً صغيرةً في كوبا أواخر القرن الماضي- حين عاد أدراجه إلى تاموغا وقد اتَّخذ قراره بأن يعيش على ريع أملاكه في هدوء. كان ذلك البيت، الذي طاله الهجران المطبق منذ أمد بعيد، يرتفع خرِبًا أمام المنتزه الذي تحفُّه الأشجار، وقد تشقَّقت جدرانه وزحفت عليه النباتات المُتسلِّقة، مُستنِدًا إلى البيتين المجاورِين بمعجزة.

من المنتزه الذي تحفُّه الأشجار، كان في مقدور الناظر أن يرى أحيانًا ذلك الوجه الضبابي الأبيض مُطلًّا من بين ستائر الطابق العلوي في ذلك البيت، لبضع ثوانٍ، كخيال طائر يراقب حيوية المنتزه وصخبه من عَلٍ. يذكر شيوخ البلدة المرات المعدودة التي وقعت فيها أبصارهم على ساكرامِنتو أندريني باعتبارها حدثًا جللًا، حين كانوا يرونها منذ أعوام طوال، وهي تجوب الشوارع أو تدخل أحد الحوانيت.

بعد موت خادمتها الوفية إسكولاستيكا، منذ عدة أعوام، أبت أن تتَّخذ لنفسها خادمةً جديدة، على سبيل الوفاء للخادمة القديمة من جهة، ولا سيما بسبب الرعب الهَوَسي الذي يبثُّه في نفسها التغيير والتجديد. كانت ابنة شقيقة إسكولاستيكا -تلك المرأة الهزيلة التي طعنت في السن قبل الأوان، وازرقَّت ساقاها بفعل الدوالي- تعدُّ الطعام من أجلها مرتين كل يوم. لم تفلح في تجاوز المطبخ قط، على الرغم من مساعيها الحميدة للحيلولة دون تهدُّم البيت. ذات يوم، عرضت على دونيا ساكرامِنتو أن تنظف الحجرات من أجلها، فأُصيبت الأخيرة بنوبة من السخط العارم، وحظرت عليها حتى أن تفتح أبواب الحجرات، فذلك حرم مُقدَّس لا يتعدَّى أحد عليه بعد موت إسكولاستيكا. كان رواق طويل يفصل بين المطبخ والمخدع حيث انزوت دونيا ساكرامِنتو على نفسها لاستحضار الظلال، ذلك المخدع الذي اتَّخذت منه لنفسها ملاذًا.

بعد الغداء، كانت تجلس على كرسي من المخمل، قريبًا من النافذة، حتى يسود الظلام. في صمت، وبلفتات رزينة هادئة، كانت تُرتِّب الصور على الطاولة بدقة تليق بلعبة سوليتير، وبمهارة مهيبة تليق بعرَّافة، فتُؤلِّف بين الأشكال، وتضع بعضها أمام البعض الآخر، وتجمع الوجوه، ثم تُفرِّق بينها، في طقوس مُفعَمة بالحنين. أما جسدها الهزيل الهرِم، الذي لا يبدو أكبر من جسد طفل في الثامنة، فيبقى مُتخشِّبًا على الكرسي، بينما تتدلَّى قدماها ونعلها فوق حرارة الموقد المُضرَم تحت الطاولة صيفًا وشتاءً. أما رأسها الضئيل المعصوب بغطاء من المخمل الأسود، فكان يتمايل ثم يرتفع بسرعة مُطلًّا على الصور الفوتوغرافية، بحركات مُتوتِّرة خليقة بطائر ينقر الطاولة. في رشاقة، كانت تخلط الصور بيديها المُتيبِّستين المُحرْشَفتين، وتفرد بأصابعها حوافَّ الصور الغليظة الضاربة إلى الصفرة. كانت تفتح عينيها وتغمضهما منتشية، وتُقرِّب وجهها من الصورة التي تمعن النظر إليها، وهي تغطُّ شاعرةً بالرضا. كانت تضغط على الصور بثغرها الدقيق المُجعَّد الذي يشبه الندبة، وتطبع القُبَل بإخلاص على تلك الوجوه الداكنة، فيما هي تحاول تذكُّر المشهد واستحضاره. حتى ينتهي بها المطاف خائرة القوى، لاهثة الأنفاس. عاشت مُؤرَّقةً مستغرقةً في نوبات الهذيان والسموِّ الطوباوي.

فقدت عقلها. وعرف الجميع أنها مخبولة، حتى قبل الزيارة، التي أجراها إلى بيتها عمدة تاموغا وثلاثة من مُعلِّميها في العقد السابق، بمناسبة إنشاء مجموعة دراسية جديدة. آنذاك، فكَّر المسؤولون في شراء الأرض القريبة من مدخل البلدة، الواقعة بجوار محطة الكهرباء. كانت ساكرامِنتو أندريني هي مالكة الأرض الخلاء، التي لم يكُن لها إلا استخدام وحيد؛ إذ اتَّخذ منها العشَّاق -الباحثون عن مكان منعزل-

ملاذًا ليليًا. ذهب العمدة ولجنة من المُعلِّمين لزيارة دونيا ساكرامِنتو، وتقديم عرض لشراء الأرض. فسمحت لهم إسكولاستيكا، الهزيلة المُجعَّدة بقدر سيدتها تقريبًا، بالدخول مباشرةً إلى مخدع العجوز. قالت دونيا ساكرامِنتو، وهي لا تتحرَّك على الكرسي:

– معذرة، فأنا لا أكاد أخرج من الحجرة.

كانت مُتَّشحةً بالسواد تمامًا، مُتخشِّبة، وقد ولَّت وجهها شطر الباب، وراحت تنظر إليهم في هدوء.

فاحت في الغرفة رائحة عطنة ممزوجة بعطر الكولونيا والكافور. سمعوها تقول بصوت مُتهدِّج ودود:

– لا تظلُّوا وقوفًا. تفضَّلوا بالجلوس. هناك، على الأريكة.

وفي حيرة، جعلوا يتفحَّصون الحجرة القاتمة المُغبَّرة الحافلة بالمهملات، حيث لا يكاد المرء يتمكَّن من السير خطوةً إلا وتعثَّر: الجدران الوردية المُلطَّخة برقع تقشَّر طلاؤها، والنجفة، ومرآة الزئبق الكبيرة المُلطَّخة، والفراش الحديدي المُطعَّم رأسه بزنابق من الصفيح المُذهَّب، وتمثال القلب المُقدَّس[1] المصنوع من الجصِّ، والطاولة المجاورة للفراش المُكتظَّة بتماثيل القديسين والمطبوعات الدينية والصور الموضوعة في أُطُر من القصدير المنقوش، والخوان المُغطَّى بقوارير وصناديق من الورق المُقوَّى، والبساط الأشعث، والطاولة التي استقرَّت فوقها شمعدانات طالها الزنجار حتى تركها مائلةً إلى الخضرة، والأريكة المهترئة المُغبَّرة المصنوعة من الحرير الأزرق، والسجاجيد المنسوجة من الصوف اللامع الذي أكلته العثة، والستائر الباهتة، والطاولة ذات الموقد المُغطَّاة بمفرش أخضر تنسَّلت خيوطه،

---

(1) القلب المُقدَّس: أيقونة تجسِّد يسوع المسيح واضعًا إحدى يديه قرب موضع قلبه.

ووسادة الإبر القرمزية الهائلة التي كانت على شكل قلب، تلك التي استقرَّت في أحد الأركان وقد نفذت من خلالها الإبر، والكرسي المصنوع من المخمل الأحمر، من حيث راح يبتسم لهم وجهٌ بلون الشمع.

وفيما هم يُفسِّرون لها سبب الزيارة، راودهم شعور بأن العجوز لا تعير كلماتهم انتباهًا، ولا تنصت إلى عرض شراء الأرض الخلاء، مع أنها جعلت تُحدِّق إليهم من دون أن يرفَّ لها جفن. أخذ الرأس الضئيل الضامر يتمايل بخفَّة طوال الوقت، وكأنه يومئ موافقةً على كلماتهم، أما العينان -الجامدتان، الشاخصتان إلى الغبش- فلاحت فيهما نظرة بعيدة، وبدا على المرأة أنها في مكان غير المكان.

بعد المُبرِّرات المُسهَبة، ظلُّوا يترقَّبون منها جوابًا، ناظرين إلى وجه العجوز المستغرق في ذاته. وأخيرًا قالت:

- ليست للبيع. لم أُفكِّر في بيع أي من أملاكي.

فقال العمدة:

- لا داعي للردِّ الآن. في وسعنا العودة خلال أيام.

أما هي فظلَّت مُشرئبَّة على الكرسي، تتأمَّلهم وقد ارتسم على وجهها تعبير مستغرق. ثم عقدت يديها فوق حجرها ورفعت رأسها ناظرةً إلى السقف. بأنظارهم، تابع الرجال الأربعة حركة ذلك الرأس الخليق بطائر. ظلُّوا يتأمَّلون السقف المرتفع المُزيَّن بفروع وأزهار مصنوعة من الجصِّ. وعند ذاك جاءهم صوتها هادئًا، طبيعيًّا على أكمل وجه. قالت:

- على كل حال، تحدَّثوا إلى سالبادور. هو الذي يتولَّى المعاملات التجارية.

وإذا هم يضطربون على مقاعدهم، شاعرين بالمفاجأة، ظنًّا منهم

بأنهم لم يفهموا، حتى جاءهم صوتها مرة أخرى، مطفأً، وإن يكُن واضحًا كل الوضوح. فأصرَّت بسلاسة قائلة:

- تحدَّثوا إلى زوجي.

منذ ما يربو على النصف قرن، تزوَّجت دونيا ساكرامِنتو أندريني من مُوظَّف تعرَّفت به مصادفةً في إحدى حفلات الكرنفال الراقصة. كان يُدعَى سالبادور بينيا، ويعمل محاسبًا لدى شركة تصدير الذرة في مرفأ أنغرا. كان شابًّا أنيقًا، له وجه مُحبَّب وقسمات مُفعَمة بالحيوية، وإن اشتهر بالتأنُّث لإفراطه في التأنُّق وولعه بالشِّعر. لم تبلغ تلك الشائعة سمع ساكرامِنتو أندريني يومًا، ولو بلغتها لما أعارتها أدنى مصداقية. تعرَّفت به في حفل راقص نظَّمته رابطة الترفيه الفني، اضطُرَّت إلى حضوره بصفتها ضيفة شرف لأن والدها، السيد أندريني العجوز، كان قد أهدى -منذ عهد قريب- طاولةَ البلياردو وأثاث صالة اللعب كاملًا إلى الرابطة الترفيهية، المُؤلَّفة غالبيتها العظمى من الحرفيين.

في تلك الليلة، حين بدأت تشعر بالضجر، رأت سالبادور بينيا يشقُّ الجموع ماضيًا نحوها. فتملَّكتها الدهشة. وبينما هي ترقص بين ذراعَي الرجل الذي لم تعشق سواه مدى الحياة، أخذت ساكرامِنتو أندريني تُفكِّر مفزوعةً، وقد صمَّ سمعها عن صخب الموسيقى الناشزة. راحت تُفكِّر في العشرة أعوام التي أمضتها في تاموغا وهي تذبل، من دون أن تنتبه إلى ذلك النبيل، الأكثر وسامةً في العالم بأسره.

في وقت لاحق، بعد مضي شهور، مات والدها. فقال بعض الناس: «الآن بات عليها أن تراعي الحداد عامين، وتلزم بيتها كما تقضي أعراف تاموغا، ومتى خرجت إلى الشارع ستكون قد طعنت في السن».

فجانبهم الصواب. لزمت ساكرامِنتو بيتها عامين، غير أنها لم تتنازل عن الفوز بسالبادور بينيا. على العكس، فالآن صار كل شيء أيسر

مما كان. بعد جنازة والدها بأسبوعين، أرسلت ساكرامِنتو أندريني إلى سالبادور بطاقة تدعوه فيها إلى زيارتها. لم تُضطرَّ إلى وضع قدميها في الشارع، بل إن العشق داخل البيت كان أفضل كثيرًا، بلا شهود ولا أي حضور مزعج. بعد الزيارة الأولى، أصبح سالبادور پينيا يدخل إلى بيت ساكرامِنتو أندريني في تمام الخامسة مساءً من كل أحد، بينما الجيران يتلصَّصون عليه من خلف ستائر البيوت المقابلة، في صدمة ورعدة.

عقدا زواجهما بعد عامين. فانتقل سالبادور پينيا إلى بيت زوجته، وتخلَّى عن وظيفته (ظنَّ جميع أهل البلدة أنه قد تزوَّج حتى يعفي نفسه من ضجر الجلوس أمام مكتب مُغبَّر وتدوين مكاييل الذرة المُتَّجهة إلى أيرلندا)، وكرَّس وقته لإدارة ثروة زوجته في اللحظات القليلة التي لم يكُن ينفقها في مجالس السمر بالكازينو أو لعب البوكر. في الواقع، بدأ ولعه وشغفه باللعب لاحقًا، بعد مضي عام على الزواج. أما الرجل الذي نشر داء ورق اللعب في تاموغا وروَّجه، فكان يُدعَى بلاين، ذلك الغريب الغامض الذي كوَّن ثروةً في أعوام قليلة، والذي رأى الكاهن كانديدو لوثانو أنه هو الشيطان بعينه، بعد مضي أعوام، بسبب وجه الشبه الاستثنائي بينه وبين الملاك الساقط عند قدمَي الملاك ميخائيل في المنحوتة العتيقة المُزخرَفة بالألوان التي تملكها كنيسة الأبرشية.

في تلك الحقبة، كان بلاين يجتمع بضحاياه حتى ساعة مُتأخِّرة من ساعات الليل في الصالون المهجور الذي يقع في الطابق الأخير من الكازينو. كان سالبادور پينيا واحدًا من ضحاياه الأشد مثابرةً. ربما أغوته إمكانية ربح النقود بمُجرَّد تحريك الأصابع وإلقاء بضع أوراق على الطاولة، ذلك العمل الهيِّن الذي لا يُسبِّب أدنى مشقة. ولكنه حين اكتشف أن الربح ليس هيِّنًا بقدر ما خُيِّل إليه في أول الأمر (في حال

اهتدى إلى ذلك الاكتشاف يومًا)، كانت ثروة زوجته قد تضاءلت إلى حدٍّ كبير. ولعلَّه استمرَّ في اللعب مدفوعًا بالرغبة الجارفة في الانتقام، واليأس، والغضب من فرط ما رأى الحظ يبتسم لـبلاين في كل ليلة. من الجليِّ أنه حتى ذلك الوقت لم يُضطَرَّ إلى إخراج سنت واحد من جيبه، لأن بلاين بلغ من السخاء حدًّا جعله يقبل توقيع أيٍ من الخاسرين على كمبيالة يتعهَّد فيها بالوفاء بدينه، ما دام الخاسر يملك ما يسمح له بالسداد.

لم يبدُ على ساكرامنتو يومًا أنها مُلِمَّة بما يجري في البلدة، ومع ذلك، فلقد بلغتها أخيرًا شائعة الخسائر المالية التي مُنِي بها زوجها. كان من رأي جميع أهل البلدة أن بلاين يمارس التنويم بالإيحاء على رفاق اللعب، من دون شك، لأنهم لم ينتبهوا إلى الحيل التي لا بد أنه يستعين بها لتعزيز حظِّه كل يوم، وإنما سمحوا له بسرقتهم ليلةً بعد ليلة، في هدوء، على أمل باطل يُحدِّثهم بإمكانية تعويض الخسائر ذات مرة.

في إحدى الليالي، لدى عودته من الكازينو، رأى سالبادور مصابيح الطابق العلوي في بيته مُضاءة؛ فخمَّن أن زوجته قد علمت بضياع نصف رأسمالها على البطانة الخضراء التي تكسو طاولة اللعب، بسبب الحظ العاثر.

صعد الدَّرج ببطء، وقد وطَّن النفس على تحمُّل مشهد عاصف. بَيْد أنه كان على خطأ. فما كاد يفتح باب المخدع حتى سمع صوتها مناديًا:

– سالبادور.

كانت واقفةً في منتصف الحجرة، وقد ارتدت روبًا كبيرًا على جسدها الهزيل. جعلت تنظر إليه وعلى وجهها أمارات الهدوء. في

حين سمع سالبادور نبرة صوتها الرصينة مرةً أخرى من دون أن يبرح مكانه على أعتاب الحجرة.

- لا يهمُّني أن تلعب. كما لا أريد أن أعرف شيئًا عن عاداتك المرذولة. ولكن الشيء الذي يزعجني أن تسمح لأحد بأن يسرق منك النقود.

- تقصدين نقودك!

صاح وهو يتحرَّك بسرعة حتى وقف أمامها، وأردف:

- تلك هي المسألة إذن، أليس كذلك؟

فابتسمت، وقد اطمأنَّت الآن إلى انتصارها. ثم قالت:

- كلا. فالنقود لك وحدك. صباح اليوم ذهبت إلى البنك وأودعت كل شيء باسمك.

لم يُحرِّك ساكنًا، وإنما ظهرت عليه أمارات الكبرياء، وجعل ينظر ساخطًا إلى زوجته الهزيلة، ذات العينين الْمُحمرَّتين، البرَّاقتين، ثم أولاها ظهره وتوجَّه إلى الفراش قائلًا:

- حسنًا، أعتقد أن موعد النوم قد حان.

في وقت لاحق، بعد مضي ساعات، أفاقت ساكرامِنتو على دويٍّ الرصاصة، وإذا بفجوة تشقُّ صدغ زوجها، مع أنه بدا نائمًا في وداعة، وغاص برأسه في الوسادة.

لم تدرِ لانتحاره سببًا قط، دع عنك أن تعرف سبب اختياره الموت بتلك الطريقة، على فراش الزوجية، قرب زوجته. كان أمرًا غامضًا. ومن الأمور المحفوفة بالغموض أيضًا أن المُسدَّس، الذي استخدمه في تفجير رأسه (ذلك المُسدَّس الهائل الذي كان للسيد أندريني العجوز في ما مضى)، قد ظهر على مبعدة أمتار من الجثة، مُلقًى في منتصف البساط، وكأنه ألقى المُسدَّس باستهانة بعد إطلاق النار، كمَن يلقي بالمهملات عديمة النفع والجدوى.

بعد جنازة زوجها، لم تعاود دونيا ساكرامِنتو أندريني الخروج من بيتها. علم سُكَّان تاموغا بوجودها لأنهم تمكَّنوا ذات مرة من إلقاء نظرة خاطفة على وجه بلون الطحين يطلُّ من خلف نوافذ البيت العتيق، قريبًا من المنتزه الذي تحفُّه الأشجار، أو لأن دكتور لاغو، الذي جمعته بالعجوز قرابة غير وثيقة، كان يزورها كلما أُصيبت بوعكة صحية.

حين خرجت إلى الشارع في المرة التالية، بعد أعوام طوال، مضت تسبقها قدماها، محمولةً داخل النعش. كان الجيران قد اقتحموا بيت دونيا ساكرامِنتو، وقد روَّعتهم الأدخنة السوداء الكثيفة الخارجة من النوافذ، فلم يتمكَّنوا من عمل أي شيء. اقتيد جثمان العجوز المُتفحِّم إلى المقابر في صندوق بلغ من الضآلة حدًّا كان من شأنه أن يحمل الجميع على الظن بأنها جنازة طفل صغير، ما لم يكُن لون النعش أسود. أما أولئك الذين سنحت لهم الفرصة ورأوا جثمان دونيا ساكرامِنتو، فحكوا أن ذلك النعش قد خلا إلا من دمية مُتغضِّنة مُتفحِّمة تكسوها الأزهار. كان ذلك أول انطباع تولَّد لديهم حين وقعت أبصارهم على العجوز في النعش.

في طريق العودة من الجنازة، قال أحدهم -غير مازح- إن دونيا ساكرامِنتو أندريني سوف تجد من الرفقة في القبر أكثر كثيرًا مما وجدت طوال المئة عام الماضية.



3

پالونثو

ذلك الأبله، الذي يُدعَى پالونثو، أتذكرونه؟ پالونثو رجل ضخم الجرم، له وجه ضفدع، ولحية خشنة تُغطِّي وجنتيه المُترهِّلتين، وفم فاغر مُسودٌّ، وأسنان نخرها السوس، وساقان مُقوَّستان، وقدمان حافيتان دائمًا، مُتورِّمتان، مُشوَّهتان. على تلك الحال ظهر للمرة الأخيرة، حين أمضى يومه كاملًا وهو يطلُّ من النافذة الصغيرة ذات السياج، قبل أن يحملوه بعيدًا، ويأخذوه إلى العاصمة. زُجَّ به في الحبس الاحتياطي، بينما اصطفَّ نصف سُكَّان البلدة في الساحة أمام الحجز، حيث تعالت قوقأة النساء اللاتي أخذن في كيل السباب وسط صخب عارم، وطفق الرجال يتوعَّدون بتحريض من النساء، ويحدجونه بنظراتهم، في حين ظلَّ پالونثو هناك، غير آبه لما يجري، بوجهه الذي سال عليه اللعاب، وعينيه البليدتين، الهادئتين، وقد ظهرت عليه أمارات البراءة المُطلَقة.

أولئك الناس، أهل البلدة، الذين كانوا في عجلة من أمرهم للتخلُّص من ذلك المقيت، تراهم حسبوه مذنبًا حقًّا؟

خير للمرء أن يُنقِّب في الذكرى، ويروي الحكاية بدءًا من «كان يا ما كان»، قبل أن تغوص في غياهب النسيان. أليس كذلك؟ أستأذنكم في الإنصات إلى ما يلي.

أُطلِق عليه هذا الاسم منذ حداثة عمره، پالونثو، أما اسمه الحقيقي، اسمه في المعمودية، فلم يعرفه أحد من أهل البلدة. لم تُعرَف له أسرة (وإن ذاعت بشأنه قصص، لعلَّها كانت من نسج الخيال، الأرجح أنها سوف تبلغكم أنتم أيضًا)؛ فصار ابنًا للجميع، منذ أن هُجِر وهو لا يزال رضيعًا. ما زال شيوخ البلدة يذكرون الواقعة حتى الآن، ويذكرون كيف ظهرت تلك اللفافة فجر يومٍ من أيام الشتاء، لفافة الأسمال، التي جاء منها نحيب صغير مرتعد من فرط البرودة، أمام بوابة دار الأيتام.

نشأ كالحيوان الضال الذي لا صاحب له، مرتابًا، منعزلًا، قذرًا، مُغطًّى بالبثور. منذ طفولته، ظهرت عليه البلاهة، ولم تبدُ عليه علامة واحدة من علامات الذكاء، بل إنه كان أبله يسيل لعابه، بليدًا يكشف عوراته حتى بعد أن شبَّ عن طور الطفولة، غافلًا عن الضربات وعن الكلمات اللاذعة وعن اللفتات الودود النابعة من طيبة حقيقية، وعن القائلين «انظروا، ها هو آت». كان مُتملِّصًا، يقضي حاجته على الملأ، بلا أدنى حياء. أي مهانة وحرج حقيقي لهذه البلدة! أي مصيبة! كبر بدينًا، ضخمًا، في جسده شيء من الرخاوة، وإن كان يأكل بشهية أكبر مع الكلاب الضالة، فيلتهم العظام وبقايا حاويات النفايات، وينازع الكلاب عليها. ويطلق زمجرةً نافذة المفعول. هكذا كان طوال الوقت، قذرًا، مُنفِّرًا، كاشفًا عن لحمه الذي تيبَّس من فرط القذارة وأطلَّ من بين طيَّات الأسمال البالية. كان يتمرَّغ في الوحل والمراعي النديَّة، وينام حيثما اتَّفق، في الإصطبلات والكهوف، أو في العراء عندما يتحسَّن الطقس. كان أخرس، يتكلَّم زمجرةً، ويطلق أصواتًا مبحوحة وبصاقًا، مستغرقًا في الغياب، (أتذكرون وجهه الرخو الذاهل؟). لم يكُن له أدنى نفع، بخلاف مالوكو، الذي كان قديسًا آخر من قديسينا الأبرياء، قادرًا على حرث الأرض، أو قطع الحطب، أو توصيل رسائل

من كلمات معدودة، أو حمل الصليب في المواكب الدينية، بعد أن يركض أمام فرقة الموسيقى وهو يلاعب تقاسيم وجهه.

أما ذلك المدعو بالونثو فلم يفعل شيئًا سوى الشرود المتواصل المنعزل، بلا تبعية ولا فروض، ولم يرغب إلا في القليل، ما لا غنى عنه. ظلَّ حرًّا طليقًا تحت السماء، بريًّا. ومع ذلك، رأف الناس بحاله، وكانوا يهدونه الثياب العتيقة بين الحين والآخر، أو يُقدِّمون له الطعام، أو يتصدَّقون عليه ببضعة سنتات. فكان يقبل كل شيء، ويرضى باستهانة، فلا يُوفِّي الإحسان قدره. استهوته الشحاذة، وإن لم يجنِ من وراءها نفعًا يُذكَر. فكان يمدُّ يده الداكنة على باب الكنيسة، ويستجدي الصدقة، بلهاث يليق بكلاب الصيد، ويطلب الحسنة من الأغراب، لمُجرَّد اللذة التي يبعثها في نفسه سماع رنين القطع المعدنية، والإحساس بصلابة النقود الباردة بين أصابعه، مُستمتعًا بتلك الموسيقى، وهو لا يعرف للنقود نفعًا، ولا قيمةً.

رأوه يكبر، ويصبح رجلًا. لعلَّه كان في الثلاثين -احسبوا عمره بأنفسكم!- حين وقعت الحادثة المُروِّعة، التي لم يُشهَد لها مثيل في أي وقت مضى. بدا أكبر من عمره قليلًا بسبب شعره الأشعث، وهيئته الرثَّة الخليقة بالغابة، وبشرته التي اكتست بطبقة من الأقذار، ونظراته المستذئبة.

في تلك الأيام، لم يندهش أحد عندما آوته لوثديبنا العجوز، التي كانت تشتغل بتنظيف المصارف وبيع الروث، تلك التي أرادت أن تشمله بعنايتها؛ فأسكنته تحت سقف، وقدَّمت له الطعام، وجعلته أقرب إلى الوجود البشري. لم يُفاجَأ أحد، فتلك المرأة لا تشعر بالنفور من أي شيء: كانت هزيلةً، داكنةً، نحيلةً، تعيش في القذارة دومًا. ربما قال قائل -رغبةً في التوصُّل إلى تفسير لما يجري- إنها شعرت

بالوحدة في شيخوختها، وهي التي كانت تسكن الأرض الخلاء، في كوخ على مشارف البلدة. آوت پالونثو وكأنه كلب، لتكون برفقة كائن حي، وتتلقّى منه نظرةً في ساعة الموت الأخيرة. ربما.

كانت تناديه، وتستقبله بابتسامة واسعة، وتلمحه من بعيد فتُحيِّيه قائلةً: «يا بُنَيَّ»، هكذا كانت تقول، في نداء حب. وإذا هو يغدو عندها «بُنَيَّ»، هكذا بات اسمه، دون غيره من الأسماء. شملته العجوز بالحب والعناية. أحيانًا، كان پالونثو يترك للمرأة قياده، وقد اعتلى صهوة الحصان الهزيل ذي الشعر الغزير، وهي إلى جواره، تسير على قدميها. كانا يذهبان إلى الشاطئ لجمع الأعشاب البحرية، ثم يعودان لاحقًا؛ فيعتلي پالونثو صهوة الحصان الهزيل من جديد، جالسًا فوق حمولة أعشاب السرجس، بينما هي تتقدّمه سيرًا على قدميها، وتقتاده محنية الظهر. وهكذا يقطعان البلدة، غريبين، بعيدين.

ولكن أحدًا لم يُفكِّر أن تلك المرأة، لوثدبينا، ربما كانت تشعر بوخزات ندم خفيٍّ على إثم اقترفته قديمًا، أو تُنفِّذ وصية الأمومة بضمير يقِظ. تراها توبة الشيخوخة؟ ذكرى قديمة؟ مُجرَّد شبه مُبهَم؟ مُطابَقة؟ تراه الظنُّ بأنه قد يكون هو؟

كانت لوثدبينا شابةً في ما مضى، مثلها كمثل الجميع، شابةً ذات جسد شهي، وقسمات لا بأس بها، كما عرفت في شبابها رجالًا كثيرين، بلا خزي، منذ ثلاثين عامًا خلت -اسألوا عنها!- إلى حدٍّ جعل أهل الحشمة يشيرون إليها وقد ثارت حفائظهم. بل وقيل عنها إنها كانت على وشك الزواج من رجل طيب يُدعَى داميان، قُتِل في الجبل ضربًا بالعصي على أيدي ثلاثة خشَّابين، أولئك المجرمين الذين ما زالوا طلقاء حتى يومنا هذا لعدم كفاية الأدلة، أولئك الآثمين بمقتضى العدالة الإلهية. وهكذا تركها في هجران مطلق، حبلى في عدة أشهر.

فولدت وحيدةً، فوق الروث، وقطعت حبل الحياة بأسنانها، تلك المرأة الشجاعة. ولكن ماذا عن ابنها؟ تراه وُلِد ميتًا، أم مات بعد أيام، أم إنها هجرته وهو في القماط؟ لم يُعرَف لتلك الأسئلة جوابًا قط. من هنا، جاءت الظنون الرهيبة والشكوك المعقولة.

وهكذا، سلَّم الجميع بالتغيير الذي طرأ على پالونثو، من دون مفاجأة بادية، شاعرين بالارتياح سرًّا، وقد تحرَّروا من أي مسؤولية، ومن ذلك الرجل الضخم الفاقد الأهلية، الذي تولَّت مسؤوليته ورعايته لوثديبينا العجوز. ولكن في بداية الواقعة المُروِّعة، استجدَّ شيء آخر. هل من تفسير لما جرى على فظاعته؟ أهناك من يملك غسل يديه مما حدث؟

جرت الواقعة في تلك الحقبة، عندما أُقفِلت الدور التي كانت على هذه الناحية من النهر، على أراضي البلدية، تلك الدور السيئة السمعة، المُشيَّدة بالطوب اللَّبِن، المسقوفة بالزنك، حيث كانت ثياب النساء الحميمية، بلونيها الوردي والأزرق الشاحب، تُنشَر على السياجات القريبة من الأبواب على سبيل الدعاية، وترفرف كالرايات الجريئة. عند ذاك، شاع بين الأولاد الاقتراب من المكان لدى خروجهم من المدرسة، ثم التلصُّص من الأرض العشبية على النساء، وهُنَّ في الروب، متغافلاتٍ عن ستر أجسادهن، أو شبه عاريات، فلا يكاد الأولاد يرون لمحةً من العرض حتى ينطلقوا راكضين، مهرولين، والقلوب تكاد تقفز من الصدور، والأحجار والشتائم تلاحقهم: كانت فتنةً محظورةً على الأولاد الصغار، وصورةً عصيَّةً على النسيان. بَيْد أن أولئك النسوة -اللاتي كُنَّ في غالبهن بدينات يُرصِّعن ثغورهن بأسنان من الذهب لإضفاء رونق على الابتسامة، أولئك اللاتي هرمن فجأةً قبل الأوان- اضطُرِرن إلى الرحيل عن هناك، عن مملكتهن، وأُرغِمن

على الافتراق. لم يهجرن المنطقة، بل استمررن في مزاولة المهنة، إذ كان لهُنَّ زبائن دائمون، قدامى، وإن صار وجودهن شبه سري من ذلك الحين، وبدأن ممارسة نشاطهن في تكتُّم، من دون صخب الماضي وضجيجه. ولكن، في ليالي السبت -استعينوا بالذاكرة!- كان الرجال يفتقدون تلك الحيوية، والأصوات العالية، والأغاني المُتَّصلة، والنزاع القصير الأمد الغارق في الكحول، والتنفيس عن الرغبة، والبهجة الصاخبة في تلك الحجرات المُضاءة المُعبَّأة بالدخان، في الدور المُطِلَّة على النهر، وروحات النساء وغدواتهن في كل وقت، وهُنَّ يسحبن خلفهن الرجال، ماضيات بهم إلى الغرف الخلفية، حيث يُخفِّفن عنهم أثقال الحياة، وينادمنهم على الشراب، ويرافقنهم في الترويح عن الذات. مضى الزمن الحزين وما زالت تلك الليالي الماجنة حاضرةً في الذاكرة. لا بد أن كوريسكو سرعان ما تكهَّن بالوضع، ذلك البرتغالي الذي يتحيَّن الفرص المواتية، التاجر الحاذق، القادر على شمِّ رائحة الصفقة على بعد فراسخ، من دون أن يشعر بوخز الضمير، ومن دون أن يعترض سبيله شيء. سرعان ما ذاع الخبر، ذلك السرُّ المعروف، الذي سرت به الشائعات القائلة بأن فرصة إنفاق الراتب على الملذَّات قد سنحت مرة أخرى. وفي أيام السبت، صارت تُقام في مستودع كوريسكو سهرات كما في سابق العهد، عامرةً بالنساء والشراب. كانت شاحنة كوريسكو تأتي من المدينة مُحمَّلةً بامرأتين أو ثلاث نساء، ينزلن في المستودع إذا أقبل الليل، فيبدأ الزبائن في التوافد قادمين من قلب العتمة إلى وسط البلدة دونًا عن غيره من الأمكنة، آتين من طرقات شتّى، شاردين، في محاولة هزيلة للتستُّر على أنفسهم. كانوا يطرقون الباب الخلفي، بالقرب من المرأب، ويتوافدون إلى الداخل في صمت، وحذر، وقد ارتسمت

على وجوههم ابتسامة تواطؤ، بينما يُنظِّم كوريسكو الرجال في صفَّين، ويتقاضى الأجر مُقدَّمًا؛ فتُسلَّم النقود يدًا بيد، علمًا أن السعر ثابت، بلا تخفيضات. ولم يكُن كورسيكو يسمح لأحد باستغراق وقت أطول مما تقتضيه الحاجة. أما المرأتان أو الثلاث نساء، المستلقيات على الجوالات، فيتلقين أفراد الجمع المهتاج واحدًا واحدًا، بهدوء وكفاءة ولفتات آلية. ولكن، سرعان ما تراخى الانضباط، حتى باتت الصرخات وضحكات العشق وضوضاء الحفل المُدوِّية تصل إلى الشارع، وتثير حفيظة الجوار. بل وصارت تُنظَّم مباريات ورق اللعب في الخلفية حتى مطلع الفجر، حيث كان يحتدم اللعب على النقود.

كل شيء في البلدة معروف، والسلطات مُطَّلعة على السر، راضية بما يجري. هل كانت ترمي إلى جباية رسوم جديدة؟ ذلك أمر شبه مُؤكَّد، غير أنها مُجرَّد إكرامية، هبة مُقدَّمة من كوريسكو.

ذات ليلة مبهجة من ليالي السبت، ظهر پالونثو. تراه مضى إلى هناك مدفوعًا بيد الشيطان؟ كان دخوله إلى المكان لا يُنسَى.

صاح أحدهم على سبيل المزاح: «دعونا نرَ، لعلَّ غرائزه تستيقظ!».

وإذا بالاستعراض يسفر عن مفاجأة كبرى. فانهالت الرهانات، وظهرت تسلية جديدة. حتى جاء قرويون من أمكنة نائية ومناطق أخرى لمشاهدة پالونثو وهو يفعلها. توافد على تاموغا الخزَّافون، وعُمَّال مرسى شحن المعادن، وصيَّادو مرفأ أنغرا، جاء الجميع من شتّى الأمكنة وكأنهم واقعون تحت جاذبية المغناطيس. إنه حدث مشهود، يبثُّ الدهشة في النفوس. أي فَحْل قادر على قصم ظهور أولئك النسوة، واحدةً تلو الأخرى، في لهاث لا ينتهي! وُضِعت الرهانات، وتمادى المراهنون حتى فاقت المجازفة طاقة البشر. أما أولئك الرجال الذين راح عرقهم يتصبَّب غزيرًا، بعيونهم المشتعلة

تحت تأثير الكحول، فما كادوا يُصدِّقون تلك الفحولة المفرطة من دون خداع. ارتفعت الرهانات أكثر فأكثر. وفي أيام السبت، صاروا يُحضِرون پالونثو، بطل الاستعراض، الذي بات عنصر الجذب الأساسي. كانوا يتحلَّقون حوله، متزاحمين، بنفاد صبر، وهم يترقَّبون شيئًا بالغ الصعوبة، كما يترقَّب المرء معركةً تحتدم فيها المنافسة. يُقال إن وجهه كان يشرق بمُجرَّد أن يرى النساء، ويتألَّق مُتفهِّمًا: تراه كان يلتمس إعجاب الجميع في وهج الجسد؟ كان ينقضُّ عليهن فلا يقدر على اعتراض سبيله شيء، ويزمجر مُكشِّرًا عن أنيابه بتوحُّش مُفعَم بالشغف، مُطلِقًا هدير العشق، مرةً تلو أخرى، هكذا، بين رجفة ولذة، ولعابه يسيل رقيقًا، إلى ما لا نهاية.

شيئًا فشيئًا، بدؤوا ينسون أمر پالونثو جميعًا، ويعرضون عنه، ويحظرون عليه الدخول إلى المستودع، ويلقون إليه ببضع قطع معدنية على أعتاب المكان، ويطردونه. لعلّهم ضجروا من تلك التسلية؛ إذ استُحدِثت أمور جديدة، وطرق جديدة للرهان. فلم يعُد پالونثو ضروريًّا، بفحولته الحيوانية، التي عُرِضت كثيرًا، وباتت معروفة. وفي تلك المراهنة الخرقاء، استُحدِثت ابتكارات جديدة، ورذائل مختلفة. أسمعتم عن سباق الأفراس؟ أراكم تبتسمون! إنها حكاية حقيقية. كانت النساء -اثنتان أو ثلاث من النساء البدينات القادمات من المدينة- يتعرَّين، ويزحفن على أربع، بنهودهن المُتدلِّية، في حين يعتلي ظهورهن رجال ضخام الجرم من أمثال سوتو أو خوسيه ألبِرتو، كالخيَّالة، فتنطلق النساء عدوًا على أرض المستودع الترابية، حتى يصلن إلى خط النهاية، أي المنضدة الخلفية. كانت تُسلَّم إلى الفائزين شتّى الجوائز، وتعمُّ البهجة الماجنة نفوسَ المشاهدين.

أما پالونثو، الشحَّاذ المُفعَم بالحنين، فذهب أدراج النسيان، ومُنِع من الدخول إلى المستودع منعًا باتًّا؛ لأن ما فات صار دعابةً قديمة.

ألم تروا كيف كان يحوم إذا أقبل الليل، ويتشمّم رائحة الإناث، شبقًا؟

أسفر الحادث الأول عن قهقهات، ومُجرَّد أقوال خبيثة: ذات سبت، كانت سنيوريتا روساريو، عازفة الأرغن، خارجةً من الصلاة التساعية[1]، عائدةً إلى بيتها الواقع في زقاق الدير، خلف الكنيسة. سمعت صوت الخوار تحت جنح الظلام، فتملَّكها الذعر. في البدء لم تدرِ ما العمل. جعلت ترتجف، وقد شدَّ الخوف وثاقها، حين وقع بصرها على الشيطان الداكن، ذلك الظلِّ الهائل، پالونثو، الذي اقترب فاتحًا ذراعيه، مزمجرًا، بوجه ذاهل. وأخيرًا، تمكَّنت من الانطلاق راكضةً، وهي تطلب النجدة بصرخات مذعورة، وتستغيث. لم يرِد أحد أن يعير مخاوف تلك العانس أدنى أهمية.

سأل أحدهم: «ألم تلاحظوا بعد ذلك كيف صار پالونثو يُحدِّق إلى النساء، جميعهن، حتى الصغيرات منهن، وهو يتنهَّد ناثرًا لعابه؟». في بداية التطوُّر الذي طرأ عليه، كان يتحرَّش بهن في ساعة الخروج من المدرسة، مُحملِقًا إلى الصغيرات ذوات التنانير القصيرة. كان يُحدِّق إليهن في لعبهن ولهوهن الفرِح، في أوقات الراحة، وإلى أفخاذهن المُتورِّدة بينما الصغيرات يلعبن نطَّ الحبل. ألم يبدُ مؤذيًا؟ ألم تخافوا وقوع المصيبة المُحتمَلة؟

ولكن الجريمة وقعت على غير المُنتظَر، تلك الجريمة التي نُسِجت خيوطها في رأس تملَّكه جنون عارم: ما أفظع أن يبحث عن الأنثى في لوثديينا العجوز، أمه الجديدة، الوحيدة!

جرت تلك الواقعة أيضًا يوم سبت، ليلًا، ولم يُعرَف عنها في البلدة

---

(1) الصلاة التساعية: صلاة يتلو المؤمن جزءًا منها كل يوم على مدار تسعة أيام، طبقًا للطقوس الكاثوليكية في بعض البلدان.

أي شيء طوال يوم ونصف، بعد ذلك وُجِدت العجوز مُلقاةً على الأرض في كوخها، وبالونثو إلى جوارها (بفضل بلاغ جارة مذعورة، فضولية، تلصَّصت عليه من النافذة). لم يحاول الهرب، بل إنه كان غافلًا عن الواقعة، ناسيًا، راقدًا على أربع. راح بالونثو يتأوَّه وقد اعتلى جسدها، جسد لوثديبينا، التي تمزَّقت تنورتها السوداء، وانكشف صدرها المُتهدِّل، وكاد يتعرَّى بياض جسدها الضارب إلى الصفرة، وبدت آثار البرائن على بطنها، وآثار العضِّ الغائرة على عنقها. أما بالونثو، الكلب الساهر على سيدته، فجعل يلوك البرد والظلمات -من دون أن يفهم شيئًا- على وقع النحيب، كما سبق أن فعل منذ ثلاثين عامًا خلت في حيرة تامة: تائهًا بالقرب من الأم والعشيقة، بين بكاء وعواء. تراه كان يحاول أن يوقظها من نومها الأبدي، ويستعيدها؟ تراه أخذ يئنُّ ألمًا، ويعوي على الموت؟ أعيدوا النظر! تراه أراد العودة إلى سكنه القديم، شاعرًا بحنين جارف إلى الصدر الداكن الحار الذي انتُزِع بعيدًا عنه؟ تراه عمي وقد بلغ أقصى أقاصي الجنون؟ لعلَّ واحدًا منكم، أيها السادة المُتعلِّمون، يعرف لما جرى تفسيرًا.

4

حملة صيد في يوليو

كان يُدعَى ثيلسو كاستيُّو، ويعمل خياطًا في تاموغا. عرف المصير الذي ينتظره منذ الفجر. بانتهاء الرحلة -التي لم يعُد أمامها الكثير، لأن الشاحنة قد توغَّلت في طريق الغابة منذ أكثر من نصف ساعة- لا شكَّ أنهم سوف ينسفون رأسه مثلما فعلوا بالمرأتين والرجال السبعة الذين عُثِر عليهم موتى فجر اليوم السابق على مشارف البلدة، قرب الصليب الحجري القائم أمام المقابر (ذلك الذي سوف يُطلَق عليه لاحقًا صليب الدماء)، من دون أن يحاول أحد التحقُّق من هوية القتلة في تاموغا.

بدأ الأمر يستأثر بفضوله، كونهم قد تجشَّموا كل هذا العناء، وأهدروا الوقت والوقود، حتى بعُدت تاموغا، وتوارى البحر خلف الجبال التي ارتفعت عاليًا بدءًا من طريق الساحل. ربما لهذا السبب تنازع الخوف والأمل في قرارة نفس كاستيُّو، بينما جعل يُردِّد في غير اقتناع، شاعرًا بالوهن المتزايد، خائر القوى: «لن يقتلوني. إنها دعابة، جولة لا غرض منها إلا زرع الخوف في جسدي».

ومع ذلك، ظلَّ محتفظًا بالقدر الكافي من اليقظة حتى يدرك أنهم

لم يقطعوا كل هذه الكيلومترات لمُجرَّد لذَّة الدعابة (تذكَّر الجنون المُتفجِّر في تاموغا طوال الأيام السابقة، أيام الصيف الدموي الذي أصابه مسٌّ من الجنون).

أحسَّ بهواء الفجر المنعش يهبُّ على وجهه، مرتكزًا بقدميه على صندوق الشاحنة التي جعلت تترجرج في الطريق الترابية الضيقة، تاركةً وراءها سحابةً كثيفةً من الغبار المُحمرِّ الذي طفا في هواء يوليو الساكن. ما لبثت جذوع الصنوبر أن سوَّرت الدرب. أخذ ينظر مُستغرِقًا، ويرى كيف تُلطِّخ فروع الأشجار وجوه الرجال الذين استقرُّوا أمامه.

بدا بمظهر وحشي. كان هزيلًا، أقرب إلى الطول، مُقوَّس الظهر، وله شعر أسود مُجعَّد تهدَّل حتى كاد يصل إلى خط الحاجبين الداكن وكأنه قبعة، ووجه أسمر بارز العظام، وذقن غير حليق، وعينان سوداوان، رطبتان، متقاربتان، وفم كبير، غائر الطرفين. أتمَّ ثيلسو كاستيُّو عامه الثالث والثلاثين في الشتاء الماضي، وإن بدا أكبر من عمره بعشرة أعوام. مثله كمثل أغلب الخياطين في تاموغا، كان أعرج، يتحرَّك في سيره بخفَّة متنافرة، مجرجرًا قدمه اليسرى المتعامدة على قدمه الأخرى. كان يرتدي بدلةً زرقاء قذرةً مُجعَّدةً، وصدارًا، وقميصًا أبيض بلا ياقة مفتوح الأزرار، يسمح برؤية شعر صدره المُسوَدِّ.

هوذا الآن في صندوق الشاحنة، يحرسه ثلاثة رجال، من دون أن يفهم أي شيء، لا شكَّ أنه راح يُفكِّر في الموت بعجز واستنكار كما فعل أولئك الذين مزَّق الرصاص أجسادهم أمام المقابر في اليوم السابق. تملَّكه ذهول شديد، إلى حدٍّ جعله يحسُّ بالخدر بين حين وآخر. بدا وجهه باهتًا من فرط الخوف. انتبه إلى إحساس بالنعاس والوهن يتسلَّل إليه، إحساس في غاية الغرابة، وكأن ساقيه مُجرَّد أطمار

باليه، تنكمش دقيقةً بعد دقيقة. في تلك اللحظات القصار، التي لم يغشَ الخوف بصره فيها تمامًا، كان يستحوذ عليه شعور جارف بالعجز كلما رأى، مُتحيِّرًا، أولئك الرجال الذين عرفهم طوال حياته، من دون أن يشتبك معهم في أدنى شجار، وإذا هم يتحوَّلون بين عشية وضحاها إلى أعداء مُستعدِّين لإنزال العقوبة بالآخرين على خطايا مجهولة.

كانوا أمامه. جعل يرنو إليهم فلم يرَ سوى أقنعة لا سبيل إلى اختراقها. وعندما حاول أن يتحدَّث إليهم -في أول الأمر- انهالوا عليه ضربًا بكعوب البنادق، وقد استبدَّ بهم الانفعال، أو نفاد الصبر. بدا موريرا أكثرهم هدوءًا، وهو رجل ضخم في الخمسين من عمره، يمتلك مصنع مياه غازية، فضلًا عن الشاحنة التي سافروا على متنها. كان برفقته خوسيه بينيتو لوثانو، ابن شقيق الكاهن، ذلك الشاب الفارع القوام الشاحب، الذي قد لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة، ونييتو، صاحب الكشك القائم في الساحة الجديدة، وهو رجل عكِر المزاج، يحب الشراب فوق كل شيء، ويتَّشح بثياب الحداد في صرامة منذ فارق أخوه الحياة (أخوه الذي انتحر منذ عهد قريب، في ظاهر الأمر، وإن لم يتقبَّل أحد من أهل تاموغا قصة الانتحار)، حتى بدا بمظهر أرمل حزنه بلا عزاء، مع أنه أعزب في أواخر الأربعينات.

مضى ثلاثتهم مُسلَّحين بالبنادق، وكأنها رحلة صيد موسمية، وإن لم تزَل بينهم وبين بدء موسم الصيد ثلاثة أشهر على وجه التقريب.

من الزجاج الخلفي، استطاع ثيلسو كاستيُّو أن يرى عنقَي الرجلين الآخرين في قمرة القيادة: قائد الشاحنة الضخم، العريض المنكبين، ببطنه الكبير كالبرميل، الذي كان شريكًا في مشغل أخشاب تاباريس، ويُدعَى سوتو، فضلًا عن دكتور إميليو لاغو، ذلك الرجل النحيل

المفعم بالحيوية، الذي اشتهر أكثر بنشاطه السياسي وولعه بالنّظام الإقطاعي وكفاءته في الطب.

توغَّلت الشاحنة في عمق الغابة. وأخذت حركتهم تزداد بطئًا، لأن الدرب التي اتَّخذوها كانت عبارة عن مجرى سيول جاف منحدر تكثُر فيه الحفر. توقَّفت الشاحنة مُطلقةً هديرًا خائرًا. كانوا في أرض غائرة، تكثُر فيها نباتات السرخس والرتم، وتكاد التلال تُطوِّقها بالكامل. شاحبًا، مُتجهِّمًا، نظر ثيلسو كاستيُّو إلى الرجال باستفهام. ارتسمت على وجهه أمارات الخوف والتسليم، وبدا عليه وقار غريب. أمروه بقولهم:

– انزل.

وفي اللحظة التي قفز فيها من الشاحنة، أحسَّ بهم يدفعونه، فخطا خطوةً واسعةً في الهواء ثم انكفأ على وجهه، وكأنهم قد شدُّوا ساقيه. ظلَّ مُمدَّدًا على الأرض، منبطحًا على وجهه. ربما تعثَّر بسبب الدفعة التي تلقَّاها، أو ربما عجز عن الحفاظ على توازنه بعد أن قفز بقدمه العرجاء.

تحلَّق الرجال حوله، في حين رفع عينيه من مكانه على الأرض، وإن لم يهمَّ بالنهوض. رأى حلقة السراويل تحيط به، ورأى البريق المُتأكِسد آتيًا من البنادق، وعلى ارتفاع شاهق رأى وجوهًا جامدةً، كلَّها معروفة، وإن تراءت له مختلفةً كل الاختلاف، مُتغيِّرةً كل التغيُّر. وفي الأعالي، فوق الجميع، ارتفعت جذوع الصنوبر وتيجانها الداكنة التي اهتزَّت هزَّةً خفيفةً في مهبِّ النسيم، ثم السماء الصافية وبريق النار. سمع صوتًا يقول:

– أقيموه.

فأمسك به رجلان من تحت إبطيه، وجرجروه مسافةً، ثم أقاموه

بحركة عنيفة، حتى وقف على قدميه، جامدًا، وبدا جسده مُتفكّكًا، كما لو أن كل أعضاء جسده قد انخلعت إثر التواء شديد، كما انخلعت قدمه المُشوَّهة. نظر إلى الرجلين لاهثًا.

من بين أفراد الجماعة، برز عملاق مُربَّع المنكبين، غليظ، وكأنه لوح من الخشب. إنه سوتو، الذي لم يكُن يحمل بندقية. بدا ناعسًا، وقد تورَّمت أجفانه وتهدَّلت. جعل يتحرَّك ببطء فيما نظر إليه الآخرون في صمت. ولمَّا صار على بعد خطوات من ثيلسو كاستيُّو، توقَّف مكانه. كان يرتدي سروالًا من القطيفة وسترةً من الشَّمواه مُلطَّخةً بالصمغ. استلَّ مُسدَّسًا من أحد جيوبه المنتفخة، ونظر إليه بضع لحظات كما لو أنه يحاول التحقّق مما في راحة يده. جعل يتلمَّسه بحرص، ثم أحكم قبضته على المُسدَّس مُطلِقًا ضحكة من بين أسنانه، مُتلهِّيًا، كما هو دأبه كلما روى طرفةً من طرائفه على الغداء في مشغل الأخشاب. ثنى ذراعه اليمنى ببطء واضعًا فوَّهة السلاح على صدر ثيلسو كاستيُّو الذي وقف أمامه خاضعًا. قبل أن يعود إلى الوراء، أحسَّ الخياط بضغط شديد على صدره. مذعورًا، حملق في العينين المُغمَضتين نصف إغماضة، عينَي سوتو الذي ابتسم في طمأنينة. ثم نظر إلى الآخرين، ممن تحلَّقوا حوله في نصف دائرة، بين لهو وترقُّب. شعر بضربة شديدة على صدره؛ فكاد يسقط، غير أنه باعد ما بين قدميه وغرس كاحليه في الأرض، وراح يترقَّب الضربة التالية. عاود سوتو ضربه بالمُسدَّس، وقال:

– اركض يا كاستيُّو. إنها فرصة لا يستحقُّها أحمر[1] واحد.

قبل ساعتين، داهم ثيلسو كاستيُّو كابوس مزعج. كانت ليلةً عصيبةً أمضاها مذعورًا على وقع دقات الساعة القائمة في الميدان.

---

(1) أحمر: لقب شاع استخدامه للإشارة إلى اليساريين والشيوعيين والجمهوريين، ولا سيما إبان الحرب الأهلية الإسبانية وما تلاها.

في الخامسة فجرًا، حين بدأ يستغرق في نوم عميق، أيقظته زوجته. فتح ثيلسو كاستيُّو عينيه، وبقوة جعل يحكُّ ذقنه التي اكتست بلحية شائكة، ثم همهم بصوت خارج من أنفه: «حلمت بنورس أخذ ينهش معدتي». ابتسم شاعرًا بالارتياح، مُوليًا وجهه شطر الجدار. في حين قالت زوجته وهي تهزُّ كتفيه:

- أسمعتَ ذلك الصوت؟ أحدهم يحاول الدخول.

فأجابها:

- كلا. لعلَّه كلب ينبش في حاوية النفايات.

أرهف سمعه حينًا. وبعد دقائق من الصمت، عندما بدأ ينعس مُجدَّدًا، سمع صوت الباب المُفضي إلى الشارع. ما كاد يسمع ذلك الصخب حتى هبَّ من الفراش بقفزة واحدة. قال:

- أضيئي المصباح.

في ارتباك، تحسَّست زوجته رأس الفراش حتى عثرت على مفتاح المصباح المُدلَّى من السقف بسلك مُشحَّم، ذلك المصباح الذي غمر الحجرة بألقٍ مُصفَرّ. كان مخدعًا رثًّا، جدرانه مُكلَّسة وأرضيته مصنوعة من الألواح الخشبية المُرقَّعة في مواضع كثيرة، يضمُّ فراش زوجية من حديد، وصوانًا، ومقعدين تكدَّست فوقهما الثياب، وسريرًا صغيرًا يشبه المعجن رقد عليه طفل في السابعة من العمر تقريبًا. كانت حجرةً داخليةً مُتَّصلةً بالمطبخ من الجهة الخلفية وبفناء ضيِّق رطب من الواجهة. وعلى الجانب الآخر من الفناء، قام مشغل خياطة فسيح، له باب وواجهة عرض مشرفة على الساحة الجديدة.

هبَّت المرأة مذعورةً. كانت شقراء، عريضة الوجه، رائعة الجمال، تُدعَى آدوراثيون، تزوَّجت الخياط كاستيُّو منذ ثمانية أعوام. كانت عشيقة دانييل تاباريس في ما مضى، وهو واحد من كبار مُلَّاك الأراضي

في المنطقة. بعد زواجها، نسيت المرأة سخاءها في الغرام (الأمر الذي أثار اليأس في نفوس رجال تاموغا، حتى تاباريس المُكابِر)، وبالوفاء الصارم لزوجها، سعت إلى التكفير عن حياتها السابقة الجامحة، حين كانت ترقص عاريةً في واحد من تلك البيوت المُطلَّة على النهر، وترضي رغبات جموع الرجال المُصطفِّين في الطابور بانفعال ونفاد صبر، مع مراعاة الدور بحزم.

تسبَّب زفافها إلى الخياط كاستيُّو في صدمة شديدة للرجال الكثيرين الذين كانوا يتناوبون عليها في ليالي السبت.

كان لها ابن صغير، هزيل، أسمر، له عينا ثيلسو كاستيُّو المحزونتان الغائرتان، وإن لم يكفِ هذا لتفنيد الشائعة الرائجة الزاعمة بأن آدوراثيون كانت تحمل في بطنها ابن تاباريس حين تزوَّجت الخياط.

سُمِع صخب مُطوَّل، وكأن أحدهم يفتح الباب من الخارج بعتلة. قالت المرأة:

– لعلَّه أدريانو.

ونظرت إلى زوجها الذي هرع إلى منتصف الحجرة بسرواله الداخلي:

– لا تتفوَّهي بترهات.

أجابها وهو يرتدي سرواله على عجل.

تملَّكه الذعر، وسرت إليه رعدة مُتأثِّرًا بشكوك الزوجة. وعلى الرغم من علم جميع أهل البلدة بالعداوة القائمة بينه وبين أخيه أدريانو منذ أعوام، عاش ثيلسو كاستيُّو في قلق شديد منذ حاول أدريانو نسف بوابة السجن الذي احتُجِزت فيه السلطات الجمهورية قبل أسبوع. كانت عمليةً طائشةً، جاء تنفيذها مرتبكًا، ولكن أدريانو كاستيُّو تمكَّن من الهرب بعد أن قتل اثنين من أفراد الحرس المدني. قيل إنه في الجبل يُنظِّم صفوف المقاومة ويستعد لمداهمة البلدة.

حين ذاع خبر تمرُّد العسكر في تاموغا، بعد الواقعة بيومين، جاء القرويون من الأمكنة القريبة إلى البلدة بالعربات وسيرًا على الأقدام، حتى إن بعضهم جاء برفقة الزوجة. كانت مسيرة حِجٍّ حزينة. وصلوا إلى ساحة السوق فوجدوا المخارج مُوصَدةً، وإذا بأفراد الفوج العسكري يفتحون عليهم نيران المدافع الرشاشة. أما صيادو المنطقة وحرفيُّوها وخزّافوها، أولئك الذين وقعوا تحت الحصار في دار الشعب[1] قرابة يومين، بدءًا من تلك الليلة، فلقد تصدُّوا لهجوم العسكر وأفراد الحرس المدني مجتمعين. حتى اضطرُّوا إلى الخروج عندما شبَّت النيران في البناء. وفي وقت لاحق، نظَّم المُتمرِّدون دوريات عقاب.

كان وهج النيران يبدو في الحقول أحيانًا كثيرة، حتى أواخر شهر يوليو. وعندما سُحِقت المقاومة، لم يتَّسع سجن تاموغا الصغير ولا حتى لربع عدد المعتقلين. وهكذا، تحوَّلت مقرَّات البلدية إلى سجون، شأنها في ذلك شأن المدرسة الواقعة على مشارف تاموغا (تلك المدرسة المُطلَّة على النهر، القائمة في دار كبيرة تُطوِّقها أسوار عالية، التي اتُّخِذ منها بعد ذلك معسكرَ اعتقال على مدى أعوام). ولكن سرعان ما حلَّ الإعدامُ مشكلات الإيواء؛ فصارت الجثامين تظهر يوميًّا مُلقاةً على حوافِّ الطرقات، حتى إن النساء اللاتي كُنَّ يقصدن مغاسل المرفأ العمومية وجدن أنفسهن ذات نهار أمام مشهد مُؤلَّف من عدة جثامين تغمرها مياه الأحواض الممزوجة بالصابون كالأسماك.

كانت الحرب عند ساكني تاموغا ذريعةً لتسوية حسابات تعود إلى أمد بعيد. لأن تلك البلدة، شأن سائر البلاد، كانت بيئةً خصبةً

---

(1) دار الشعب: هو الاسم الذي كان يُطلَق على مقرَّات التكتّلات السياسية التابعة للحزب الاشتراكي العمالي الإسباني.

للشائعات والنميمة في إبان تلك الحقبة التي بلغت خلالها البراعة في إذاعة الأخبار والولع بها أمداءً غير مسبوقة، سواءً كانت أخبارًا حقيقية أم زائفة. وبات الجميع يخشى الجميع، فلم يشعر أحد بالطمأنينة لأن المسؤولية الفردية قد تمتدُّ إلى أبعد الأسلاف.

وهكذا، تملَّك ثيلسو كاستيُّو شعورٌ جارفٌ بالهلع حين سمع زوجته تذكر أدريانو. وبينما هو يفتح الباب، صرخت فيه قائلةً:

- لو أنه أدريانو فلا تسمح له بالدخول.

قطع الفناء مُفكِّرًا في توجُّس: «من المستحيل أن يكون هو». لبث مكانه لحظات، فتناهى إليه صوت آتٍ من مشغل الخياطة. ومن تحت الباب، تسرَّب خيط من الضوء. دلف كاستيُّو إلى المكان فتجمَّد مفزوعًا. رأى أول ما رأى قطع القماش متناثرةً على الأرض كالحيَّات العملاقة. وفي الخلفية، رأى عدة رجال يُنقِّبون في الخزائن.

- حسنًا، لا أظنُّك خبَّأته في الفراش.

بلغ من الذهول حدًّا جعله لا يدرك مَن هم إلا حين بلغه الصوت. كان دكتور لاغو أمامه. سمع صوته مرةً أخرى حين قال دكتور لاغو مخاطبًا بقية الرجال:

- فتِّشوا الحجرات الخلفية.

فتح سوتو وموريرا باب الفناء. أراد الخياط أن يذهب في أثرهم ولكن خوسيه بينيتو اعترض سبيله بالبندقية، ثم دفعه بالسلاح آمرًا:

- اجلس.

تراجع ثيلسو كاستيُّو ببطء، مُولِّيًا ظهره إلى الباب. وبلفتة مودَّة، دفعه الدكتور إلى المقعد المضفور من الخيزران تحت دائرة الضوء الآتية من المصباح. للحظة، جعل الدكتور يتأمَّله مطرقًا، وأجفانه ترفُّ بانفعال، ثم وضع يده على صدره كمَن يحاول سماع نبضه. سأله:

- لعلَّك لا تدري أين هو أدريانو، حقًا؟
أومأ ثيلسو كاستيُّو برأسه نافيًا. وقال بصوت خفيض:
- تعلم أني لا أمتُّ له بأي صلة.
تلاشى الفزع من وجهه، وما عاد يبدو عليه إلا تعبير يشي بالانكسار. جلس دكتور لاغو على مقربة منه في صمت.
بعد مضي ربع ساعة، نهض الدكتور وقطع الحجرة بخطًى مُفعَمة بالحيوية. لبث مكانه لحظةً وهو يرهف السمع واضعًا يده على مقبض الباب، ثم قطع الفناء. من الجهة الخلفية، جاءت همهمة، وصوت لا يخطئه السامع، أكثر انطفاءً بعض الشيء، صوت نحيب طفل. بعد ذلك، ظهر موريرا وسوتو. دخلا إلى المكان، فتنهَّد سوتو، بينما انطلق موريرا مقهقهًا، حتى وضع خوسيه بينيتو سبابته على شفتَيه. أما الدكتور، الذي دخل من فوره محتقن الوجه، فقال:
- تعالَ معنا يا كاستيُّو.
كانت الشاحنة قد تُرِكت أمام باب مشغل الخياطة. وفي لحظة الصعود إلى الشاحنة، سمع ثيلسو كاستيُّو بضع صرخات. لم يتمكَّن من رؤية شيء لأنهم طرحوه أرضًا في صندوق الشاحنة. سمعهم يأمرونه، وهم يركلونه ويغطُّونه بقماش: «انبطح على الأرض، سحقًا!».
حين تمكَّن من النهوض لاحقًا، رأى شاحنة مُغبَّرة، وأفقًا من الأشجار.
بعد ردح من الوقت، عندما تناهى الأمر إلى سمعه، لم يُحرِّك ساكنًا. كان في حيرة من أمره. لم يفهم جيدًا، وإن سمع الكلمات على أكمل وجه: «اركض يا كاستيُّو. إنها فرصة لا يستحقُّها أحمر واحد».
دوَّى الانفجار قرب رأسه، وارتدَّ الرصاص على ساقيه. اضطرَّ

إلى العدو قفزًا، في خطٍّ مُتعرِّج، لتفادي مسار المقذوفات. بين الحين والآخر، كانت قدماه تتعثَّران في الحشائش، بَيْد أنه راح يعدو برشاقة، يلاحقه دويُّ إطلاق النار، (تراك تراك)، وأصوات الرجال الخشنة. كان يسمع ضحكاتهم كلما قفز. حتى إنهم أمسكوا عن إطلاق النار للحظات وهو يجدل خطواته المتنافرة الراقصة في الهواء من دون أن يتوقَّف عن العدو.

«ربما تمكَّنتُ من الهرب لو بلغت الجرف». هكذا دار في خلده، شاعرًا بأن عدوه لن ينتهي أبدًا، وبأن المسافة التي تفصل بينه وبين الجرف بلا نهاية. أحسَّ بأن رئتيه على وشك الانفجار، وبأن حلقه يغصُّ بالهواء. وإذا الشمسُ في رأسه غليان، وفي عينيه وهجٌ ثاقب. سالت قطرات العرق على وجهه كالدموع، سخينةً. همَّ بالقفز، فما كان منه إلا أن سقط على شجيرات الرتم. طفق يدفع جسده بيديه، وينشب راحتيه وذراعيه في الأفرع الشائكة. سالت قطرات العرق من حاجبيه وأغرقت قميصه الذي التصق بصدره. وحين شرع يجري مُجدَّدًا، أحسَّ بحرق في ظهره، وضربة سوط خلف ركبته. ترنَّح، وسار بضع خطوات، حتى استند إلى جذع شجرة صنوبر. وفي تلك اللحظة، حين سمع الانفجار يُدوِّي داخل صدره، وقع بصره على الجرف. كان منحدرًا عاليًا وعرًا. وفي الأسفل، تبدأ غابة كبيرة. ترك نفسه يتهاوى شاعرًا بالارتياح. فزلَّ جسده بسرعة على الأرض المُبطَّنة بإبر الصنوبر. كان سقوطه شديدًا.

هبَّت الريح مُحمَّلةً بهمهمة من الأصوات البعيدة. وقف على قدميه وجعل يتفحَّص جراحه من خلال الثياب المُمزَّقة. لم تكُن خطيرةً. تدفَّقت الدماء غزيرةً من صدره، وإن لم يكُن الجرح غائرًا. شعر بخفَّة وقوة. فرد ذراعيه وساقيه إلى أن تحقَّق من قدرته على الحركة

بسلاسة. توغَّل في الغابة راكضًا، بينما الضوء يتسلَّل من القبَّة النباتية، ويتساقط ضبابيًا وسط الأشجار، وكأنه آتٍ من خلال نوافذ كنيسة من الزجاج المُعشَّق.

كانت الأرض رطبةً لينةً مريحةً تحت قدمه المُتألِّمة بعد الوثب العنيف، بينما أخذت الغابة تزداد عتمةً على عتمة كلما توغَّل فيها. تصاعدت من الأرض أبخرة عذبة وانتشرت في الهواء. أما الصمت المطبق فقد محا من ذاكرته الدويَّ والصراخ اللذين أسفرت عنهما الملاحقة.

لم تنقطع أنفاسه، بل إنه انطلق يعدو سريعًا، خفيفًا، إلى أن دوَّى في أذنيه طنين. وإذا هو مُستلقٍ على بطنه، يحسُّ بخفقات قلبه على الأرض. استند برأسه إلى الأرض ومكث ناظرًا إلى صفِّ النمل المنتظم، الماضي صوب جذع ساقط على الدرب. استرعى انتباهه فطر أحمر ممتلئ، عالق بالجذع المُتعفِّن. أغمض عينيه لحظات، حتى بدأت دموعه تسيل. سرى إليه شعور بالارتياح. فقد ملاحقوه أثره، فبقي وحيدًا، يلفُّه الصمت. أغمض عينيه، وغرق في العتمة التي راحت تغمره شيئًا فشيئًا، وكأنها المدُّ يزحف على جسده، ويجرفه إلى كهف سحيق دافئ دبِق.

لم يحسَّ بوقع الخطوات عندما اقترب الرجال ورأوه متهالكًا تحت شجرة، على حافة الجرف تحديدًا. لم يحسَّ بالركلة العنيفة التي قلبته على ظهره، ولا الدويِّ الذي يصمُّ الآذان الآتي من البنادق، تلك التي انطلقت وقد أُلصِقت فوَّهاتها بجسده.

5
البيت المُقسَّم

- ديليا!

صاح وهو يطلُّ على الظلام الذي غشي فوَّهة الدَّرَج.

للحظات، لبث مكانه جامدًا، وقد شُلَّت حركته من فرط الدهشة واللهفة. عاود مناداة أخته: «ديليا».

فلم يتلقَّ جوابًا، إن هو إلا رجع صوته يرتدُّ عن جدران البهو.

تشبَّث بالدربزين، وقد مال برأسه نحو فوَّهة الدَّرَج المعتمة، وتهدَّل شعره على عينيه، الشاخصتين إلى الظلمات، محاولًا اختراقها. تهدَّجت أنفاسه واحتقن وجهه على أثر الشجار الذي اندلع منذ قليل، الذي فاق الشجارات السابقة عنفًا وحدةً. أخذ أوراثيو آرياس يحاول التنقيب عن فكرة تسمح له بمواجهة الموقف جامدًا منتبهًا إلى أدنى صوت، وسط الحيرة التي استحوذت على رأسه.

استند إلى الدربزين الذي صرَّ وارتجَّ تحت وزنه المفرط، وأخذ يُفكِّر في غير اقتناع: «ديليا تحاول أن تخيفني. ولهذا لا تحير جوابًا». استقام بصعوبة وبدأ ينزل الدَّرَج. جعل يتحرَّك بمشقة، بلفتات بطيئة ثقيلة، ومشاعر الضغينة والسخط يفسحان للخوف طريقًا.

وصل إلى بسطة الدَّرَج الأولى؛ فقال لنفسه بحزم: «يجب عليَّ النزول قبل أن تصل ماريا ريتا». قالها بصوت مسموع، بنبرة الأوامر المُتسلِّطة، حتى يرغم نفسه على النزول فورًا، مرتابًا في قراره وشجاعته، وهو يعرف بالفعل أن شقيقته ديليا تنتظره بالأسفل، في البهو. بدت أمارات الهول على وجهه، كما في عهد الطفولة، حين كانت أخته تهزُّه من كتفيه بعنف كلما أتى فعلةً شقيةً. لم يرغب في إضاءة مصباح الدَّرَج، بل إنه مضى يتلمَّس طريقه لئلَّا يُعجِّل برؤية ما لن يملك من رؤيته بدًّا متى وطأ بقدمه السلمة الأخيرة من الدَّرَج والبلاطات الأولى من البهو الفسيح الغارق في الظلال.

«ديليا». ناداها مرةً أخرى، وقد صار نداؤه الآن خاليًا من الضغينة، وجاء بصوت خفيض، بنبرة تنمُّ عن انكسار شديد.

كان بدينًا، ضخم الجرم، رقيق الصحة، مظهره يشي بالضعف والسقم نظرًا إلى إصابته بالربو، يبلغ من العمر نحو أربعين عامًا، ويمتلك مخزن أنسجة مزدهرًا إلى حدٍّ يسمح له بأن يعيش بلا ضائقات مادية. كان هو آخر الذكور من نسل آل آرياس، واحدة من أعرق عائلات البلدة، لحق بها تدهور بيِّن منذ أكثر من نصف قرن.

عاش في بيت من طابقين يقع في ركن من أركان ساحة البلدية، ذلك البيت الذي شارك فيه أخته الوحيدة ديليا بعد أن ورثاه منذ خمسة عشر عامًا بموت والدهما، التاجر، الذي كان يفتقر إلى مَلَكة التجارة، الذي أفرط في ولعه باللعب حتى إنه خلال أعوام قليلة أفلح في تبديد ثروة ضخمة تكدَّست على مدى أجيال. لطالما عاش الأخوان معًا، في تناغم ظاهر، حتى وصلت ماريا ريتا في مطلع العام الماضي. كانت ديليا عانسًا، حظها من الجمال قليل، تكبر شقيقها ببضعة أعوام، درجت على الأمر والنهي، وعلى وداعة أوراثيو وخضوعه الدائم. ولذا

كان تقسيمُ بيت الساحة وافتراقُ الأخوين يُمثِّل حدثًا جللًا ومفاجأةً لأهلِ تاموغا. في دهشة، رأى أهل البلدة فرقتين من البنَّائين الذين سدُّوا بوابة البيتِ الرئيسية بين عشية وضحاها في همَّة واستعجال، ثم ابتنوا درجين وشقُّوا بابين منفصلين في واجهة البيت الضيِّقة المُشرِفة على الساحة. كان ذلك تقسيمًا عبثيًّا أفسد تناغم البناء.

رأى الجميع أن الأخوين قد استقرَّا على فراق قاطع، إلى حدٍّ جعلهما لا يطيقان ولا حتى مُجرَّد اللقاء على الدَّرَج.

بدأ الأمر برمَّته ذات مساء بارد رمادي من شهر فبراير، قريبًا تحلُّ ذكراه الثانية.

كان أوراثيو قد فرغ لتوِّه من إقفال المتجر وهمَّ بترتيب مجموعة طوابع البريد -تسليته الأثيرة في أمسيات الشتاء- جالسًا إلى الطاولة ذات الموقد في حجرة المعيشة، حين وقع بصره عليها لأول مرة.

قالت ديليا:

- إنها الفتاة الجديدة. اسمها ماريا ريتا.

ظلَّت واقفةً بجوار سنيوريتا ديليا، في الردهة، على بعد خطوتين من باب حجرة المعيشة المُشرَع، وقد أمسكت حقيبةً من الورق المُقوَّى بكلتا يديها ورفعتها إلى مستوى بطنها. وبصوت هادئ ودود قالت: «مساء الخير»، بينما هي تضع الحقيبة على الأرض، ناظرةً نحو الباب المضيء. رفع أوراثيو عينيه عن طوابع البريد ونظر إليها بإمعان.

فتاة في ريعان الشباب (لعلَّها لا تتجاوز السادسة عشرة)، تبدو بمظهر متواضع خجول، تميل إلى الهزال، تتَّشح بثياب الحداد الرثَّة، وترتدي تنورةً وكنزةً بدأ لونهما يبهت بالفعل. كانت تلك هي أول مرة تخدم فيها. ولقد جاءت من ضيعة قريبة تحمل خطاب توصية من الكاهن الذي أكَّد على أنها فتاة جادَّة ماتت أمها في الشتاء الماضي. أما والدها، فلم تتعرَّف به يومًا.

ومع أن رسالة الكاهن لم تذكر شيئًا بهذا الشأن، ثبت أن الفتاة مُجتهِدة أيضًا. أدَّت عملها بنشاط لا يكلّ، وكأنها قد عزمت على تأدية عمل ثلاثة أشخاص نشطاء مُفعمَين بالحيوية. وبطبيعة الحال، فُوجِئت ديليا بقدر ما سعدت بها سعادةً غامرةً. أما أوراثيو، فلقد تملَّكه اضطراب لا سبيل إلى تفسيره منذ وقع بصره عليها في تلك الأمسية، حين وصلت ماريا ريتا إلى البيت. استغرق أوراثيو أكثر مِن شهرين حتى يدرك أن الرغبة هي السبب في لياليه العصبية، وفي مشاعر الضيق والقلق المُتَّصل الذي اعتراه. ذات ليلة، أفاق منزعجًا من حلم رأى فيه ماريا ريتا وهي تسمح له بأن يُجرِّدها من ثيابها، وتستجيب له بمداعبات خبيرةٍ، مُتلهِّفةٍ. وفي العتمة، بينما هو عاجز عن العودة إلى النوم، أدرك أنه يتعذَّب بشغف سري لا سبيل إلى كبح جماحه. اضطُرَّ إلى التسليم بما عرفه منذ الوهلة الأولى، وما أنكره طوال الوقت، اضطُرَّ إلى التسليم بأن مشاعر اللهفة والانفعال، التي استحوذت عليه، مرتهنة بصورة فتاة قروية انغرست في ذهنه من ذلك المساء، حين رآها لأول مرة، بحقيبتها، وأمارات الخضوع بادية في عينيها. قال لنفسه، شاعرًا بالغضب والمهانة: «إذن فهي السبب. تلك الفتاة الملعونة التي أبلغ من العمر ضعفَي عمرها. خادمة، قروية، بل إنها تفتقر إلى الجمال!».

حتى ذلك الحين، لم يرغب في امرأة واحدة أطول من بضع ساعات، ومن المُؤكَّد أنه لم يرغب في امرأة ما لم يتمكَّن من الفوز بها على الفور. لطالما اتَّسمت غرامياته بذلك الاستعجال الوحشي الذي يُميِّز الاحتياجات البدنية، ولطالما كانت غرامياته عمليَّة، تفتقر إلى الطابع الشخصي، شأنها شأن المعاملات التجارية.

نهض قبل موعده المعهود بساعة واحدة، وارتدى ثيابه على مهل حريصًا على ألا يوقظ شقيقته النائمة في الحجرة المجاورة. اتَّجه إلى

المطبخ بشعر أشعث، من دون أن يغتسل. فرأى أول ما رأى، في غبش الفجر الرمادي، ذلك العري الذي يخطف الأبصار، عري الفخذين البيضاوين الملفوفتين. انقطعت أنفاسه، بينما جعلت ماريا ريتا تفرك أرض المطبخ بحيوية، جاثيةً على ركبتيها، وقد مالت بجسدها إلى الأمام. وفيما أحسَّ بالاختناق، وراح يرتجف من فرط الإثارة، قال:

– ماريا ريتا.

لا بد أنها لم تسمعه؛ إذ لم تلتفت إليه، بل إنها واصلت فرك الأرض جاثيةً على ركبتيها. خطا نحوها خطوةً، ثم توقَّف من دون أن يُحوِّل عينيه عن ذلك الجسد النابض المرن المُمدَّد عند قدميه. عند ذاك، هبَّت واقفةً، باسمةً، وحيَّته باحترام: «صباح الخير يا سيدي». جفَّفت يديها على التنورة، واتَّجهت إلى الموقد، ثم رفعت عن النار قدرًا تتصاعد منها الأبخرة. ترك أوراثيو جسده يتساقط على أحد المقاعد، واتَّكأ بمرفقيه على مائدة المطبخ المصنوعة من خشب الصنوبر. لم يتحرَّك من مكانه ولم يرفع عينيه، وكأنه مستغرق في النعاس، حتى انتبه إلى رائحة لاذعة آتية من المُبيِّض والصابون، وأحسَّ بجسدها يلامس جسده برقَّة، بينما هي تمسح المائدة بخرقة مُندَّاة. في البدء، رأى اليدين الحمراوين الرطبتين، والذراعين العاريتين. وبعذاب متزايد، رأى رجفة نهديها الخفيفة تحت البلوزة المهترئة، نهديها المرتعشين على وقع حركتها وهي تمسح المائدة. اتَّجهت إلى الموقد، ثم عادت تحمل ركوة القهوة والصينية العامرة بشرائح الخبز المقلي. وفيما راحت تصبُّ القهوة من أجله، أحسَّ بنهديها المحكمين المشدودين يضغطان على ظهره في عناد. لم تبدر منه أدنى حركة حتى ابتعدت عنه بجسدها. رمقته للحظة، على الجانب الآخر من المائدة، في ثبات وديع، بعينيها الواسعتين السوداوين، وكأنها تحاول أن تقرأ سبب انفعاله على صفحة وجهه المُتجهِّم الذي بدت عليه آثار الأرق.

توتَّرت أعصابه بشدة، حتى إنه لم يكَد يتمكَّن من تذوُّق الفطور. غادر المائدة بحدَّة، ثم قطع المطبخ في خطوتين، مُطرِقًا، من دون أن ينظر إليها، وقد زمَّ شفتيه، ورسم على وجهه تعبيرًا نافرًا.

أمضى البقية الباقية من النهار خلف منضدة العرض في المتجر. حاول جاهدًا أن يتحلَّى بالودِّ مع الزبائن، ولكن سدى. ثم عاد إلى البيت والنهار ينتصف، فجلس أمام شقيقته على الغداء، ومن دون أن يُولِّي ثرثرتها التي لا تنقطع انتباهًا، تراءى له أنه قد لمح نظرة تواطؤ في عيني ماريا ريتا، التي أعدَّت المائدة في رصانة هادئة، وكأن بينهما سرًّا.

وبينما هو يكتم أنفاسه، وينظر إلى شقيقته في ذعر، تحقَّق من تكرار الملامسات مرةً أخرى، وإن صارت الآن أكثر تكتُّمًا منها في ساعة الفطور. أحيانًا، كانت راحة يدها الدافئة تلامسه وهي ترفع أدوات المائدة، أو يلتحم جسدها بظهره وهي تضع الصينية على المائدة. وفي أحيان أخرى، كان صدرها يمسُّ كتفه مسًّا خفيفًا، إذا اقتربت من المائدة. أيقن أن ديليا لم تدرك مما يجري شيئًا، فأخذ يختلس النظر إلى الخادمة، التي بدت كل إيماءاتها طبيعية بريئة، حتى إذا توتَّر جسدها وهي ترفع الصحون، ومسَّت وجنته بساعدها الصقيل الناعم، مسًّا يكاد يكون عصيًّا على الإدراك.

في تلك الليلة، بينما هو مستغرق في هموم الأرق -وقد أصابه الضيق والاختناق مُتأثرًا بنوبة ربو أشدَّ وطأةً من نوبات سابقة- عاودته الرغبة فيها بعنف رهيب.

استمرَّ الحال يومًا بعد يوم. حتى خطر على باله غير مرة أنه بدأ يهذي. كانت نظراتهما تتلاقى، فيتراءى له بين الحين والآخر أنه قد لمح في عينيها غمزةً مثيرةً أو بريقًا خبيثًا، للحظة عابرة. وهكذا، عاش في غمٍّ مُتَّصل.

ذات ليلة، بعد أسابيع من الظنون، أسابيع لم يعُد يعرف خلالها إذا كان يتعذَّب بسرابات مخيلة متَّقدة، أم اختلال مُتوتِّر سيطر على حواسه المُشوَّشة، أم استهزاء فتاة مثيرة، لم يقوَ على الاحتمال أطول مما احتمل؛ فنهض من الفراش وقد عقد العزم على وضع حدٍّ لذلك العذاب المُطوَّل مرةً وإلى الأبد، بعد ساعات أمضاها عاجزًا عن النوم، وهو يتقلَّب في فراشه، ويتخيَّل جسد ماريا ريتا في العتمة. فتح الباب على مهل، ثم خرج من المخدع حافيًا، لا يرتدي سوى البيجامة. قطع الرواق المعتم سيرًا على أطراف أصابعه، وتوقَّف لحظةً أمام حجرة أخته الموصدة، حتى سمع صوت أنفاسها المُطمئنَّة آتيًا بوضوح من خلف الباب. وصل إلى الدَّرَج سائرًا في حذر لئلَّا يوقظ أخته. صعد الثماني درجات المفضية إلى العليَّة وهو يتلمَّس طريقه، ثم توقَّف على بسطة الدَّرَج الأولى، مضطرب الأنفاس، أمام باب صغير تُرِك من دون طلاء. دفع الباب ودلف إلى الحجرة بكتفه، خافضًا رأسه، محاولًا الاهتداء إلى الطريق تحت جنح الظلام. تعثَّر في كرسي تكدَّست عليه الثياب، وكاد يطيح به. سرعان ما أدرك أنه في منتصف الحجرة الصغيرة، ذات السقف الواطئ المائل. كان أمامه فراش من حديد، على بعد خطوتين، وعلى يمينه طست يلاصق الجدار، تعلوه مرآة مُحطَّمة. حين بدأت عيناه تألفان العتمة، رأى لبدةً من الشعر الأسود فوق الوسادة. أخذ يرتجف بردًا ولهفًا. وبينما هو يدنو من الفراش، قال برقَّة:

– ماريا ريتا.

ناداها بوهن في العتمة المُثلَّجة، وتذكَّر ذلك النهار عندما ناداها بالطريقة نفسها في المطبخ فلم تسمعه. ولكنها سمعت صوته في تلك المرة، فقالت:

- في خدمتك.

وهذا كل شيء. استوت ماريا ريتا على الفراش وراحت تنظر في غير دهشة، من دون أن يبدر على وجهها أدنى أثر للنوم، وكأنها لم تستيقظ منذ لحظات، بل كانت تنتظر زيارته. تجلَّت في عينيها تعابير عذبة هادئة، وعلى شفتيها ابتسامة. لم تحاول الابتعاد ولا الإعراض عنه حين جلس على الفراش وبدأ يحتضنها ويُقبِّلها بعنف ينبض باللهف واليأس. دفن وجهه في جِيدها، وبيديه المرتجفتين حاول تعرية ذلك الجسد الذي قُدِّم إليه في خضوع. استلقى على الفراش بنهم، شاعرًا بانفعالات وآلام رغباته المتراكمة طوال الشهور الماضية وهي تتبدَّد في هزَّة واحدة. سحقها بوزنه المفرط الثقل، أما هي فبالكاد أطلقت آهةً واهنةً عندما تلقَّت صلابةَ نزوته الوحشية.

ومن تلك الليلة فصاعدًا، ترسَّخت لديهما عادة جديدة، طقوس دامت بضعة أشهر. فبات أوراثيو، كلما تسلَّلت خيوط الفجر من الكُوَّة الصغيرة في حجرة الخادمة، يفارق حضن ماريا ريتا ويعود إلى مخدعه خلسةً، فلا يسمح له الوقت سوى بغفوة قصيرة وبصمة يتركها جسدُه على الفراش.

ذات صباح، وهو داخل إلى حجرته، رأى شقيقته ديليا جالسة على حافة الفراش.

- اجلسْ لحظةً.

توقَّف ذاهلًا، ويده على مزلاج الباب. ثم التفت إلى شقيقته ونظر إليها مُطرِقًا.

أما ديليا، التي جعلت تراقب أخاها الماثل أمامها، فقالت بصوت حازم من دون التخلِّي عن هدوئها:

- لا بد لها أن ترحل عن هذا البيت فورًا. للتوِّ واللحظة.

وبنظرة باردة، هازئة، رمقت منظره المتنافر، المتهالك، وقد بدا أضخم وأبدن من أي وقت مضى في البيجامة الفضفاضة.

نظر إليها مُتحيِّرًا، وكأنه لم يفهم لكلماتها معنى. ثم حبس أنفاسه لحظاتٍ، وضغط بقبضتيه على خاصرتيه، فاغرًا فمه من دون أن ينبس بكلمة واحدة. تجمَّد برهةً، وكأنه أول المتفاجئين بالرد الذي هو موشك على الإدلاء به. ثم إنه زفر بقوة، وأخيرًا قال:

- كلا.

كانت أول مرة يجترئ فيها على معارضة أخته، ولقد عارضها بحزم وشدة، حتى إن قراره لم يدع للشك مجالًا.

رمشت ديليا عدة مرات، ثم قطَّبت حاجبيها مصدومةً، مستنكرةً، عاقدةً ذراعيها على صدرها كما لو أنها تترقَّب عدوانًا، ولم يسعها شيء سوى التمتمة بقولها:

- لعلَّك لا تنوي...

تراجع أوراثيو خطوات، ثم رفع ذراعه، مشيرًا بسبابته إلى الباب، وقال بهدوء:

- من فضلك. يجب عليَّ أن أرتدي ثيابي.

بلغت من الذهول حدًّا تركها عاجزةً عن الرد إلَّا بمشقة. فقالت وهي في سبيلها إلى الخروج:

- لا يمكنني تحمُّل ذلك العار. علاقة بمحظية في بيتي أنا!

وهكذا، اندلعت حرب من السباب والشجار العنيف الذي تكلَّل بتقسيم البيت وافتراق الأخوين بعد أسابيع. عاش أوراثيو مع ماريا ريتا في نصف البيت الذي كان من نصيبه بعد التقسيم، من دون أن يُولِّي ثرثرة الناس أدنى اهتمام. أما سنيوريتا ديليا فسكنت النصف الآخر من البيت العتيق المُشرِف على الساحة، مُرغَمةً على تجرُّع مهانة البقاء وحيدةً، حيث لا يفصل بينها وبين العاشقين إلا جدار رقيق.

لم يكُن قد مرَّ عامان على اليوم الذي اقتحمت فيه الدخيلةُ حياةَ الأخوين الهادئة، حين تلقَّت ديليا الخبرَ من صديقاتها اللاتي ألفن زيارتها كل مساء. في البدء، عجزت عن تصديق ما روين عليها. وكادت تسكب قدح الشاي، الذي همَّت برفعه إلى شفتيها في تلك اللحظة، على الثوب الأسود الذي حجب جسدها حتى العنق بإحكام. كانت وصديقاتهما مجتمعات في صالون الضيوف القاتم، المزدحم بقطع الأثاث، المُزيَّنة جدرانه بلوحات مهيبة تُصوِّر شتّى الأسلاف.

قالت إحدى صديقاتها بجفاء:

- أنا نفسي لم أنتبه إلى ما يجري حتى اليوم. يبدو بطنها منتفخًا كالطبول. رأيناها لتوِّنا في الساحة ونحن في طريقنا إلى هنا. يا لها من وقحة!

ثم أردفت أخرى:

- شيء مُخزٍ. من كان ليخطر له على بال! بعد أيام نقرأ في الكنيسة إعلان الخطوبة!

فقالت ديليا، بأنفاس مختنقة:

- كلا. تلك الوضيعة...

انقبض وجهها فجأة، واحتدَّت عيناها في محجريهما الصغيرين، وضاقتا من فرط الغضب. راحت تُردِّد بصوت خفيض: «غير معقول، غير معقول!». مالت بذقنها على صدرها، الذي اضطرب اضطرابًا ملحوظًا، وزمَّت شفتيها حتى جعلت منهما صدعًا شاحبًا، من دون أن تنظر إلى صديقاتها الجالسات أمامها، أولئك اللاتي راقبن وجهها الغاضب خلسةً. ربما كُنَّ يراقبنها شاعرات بالرضا، متواريات خلف أشغال التريكو التي انصرفن إليها.

حين غادرت صديقاتها في ساعة مُتأخِّرة جدًّا من المساء، كانت قد

اتَّخذت قرارها. فارتدت ثيابها بتروٍّ في المخدع الذي كان لأبويها في ما مضى. تنهَّدت عميقًا وهي تتأمَّل نفسها في المرآة: «رباه! يجب عليَّ أن أمنع هذه الزيجة المخزية».

كانت طويلة القامة عجفاء، فأبرز ثوبها الأسود لون بشرتها الضارب إلى الصفرة، وهشاشة جسدها المفرطة. ألصقت شعرها بصدغيها، وجعلت بعضًا منه فوق رأسها على شكل خوذة نحاسية اللون. بدت سحنتها ذابلة، ونظراتها قاسيةً، وبرزت نتوءات فكِّها مضفيةً عليها مظهرًا عنيدًا حازمًا. غسلت يديها بالصابون في تأنٍّ، وجعلت تفركهما عدة دقائق، في محاولة منها لتنظيف قذارة لا وجود لها. لطالما غسلت يديها بهذه الطريقة، بعناية مبالغ فيها. عادت إلى المخدع، فارتدت معطفًا أسود، واعتمرت قبعةً سوداء أيضًا، مُزيَّنةً بالريشات، ما كانت تعتمرها إلا في المناسبات المهمة. ثم خرجت إلى الشارع. لم تقطع أكثر من بضع خطوات، ثم دلفت من الباب المجاور في حزم، بمظهر غاية في الوقار. صعدت الدَّرَج على مهل حتى وصلت إلى باب الطابق الأخير من دون أن تتوقف طلبًا للراحة. عند ذاك، لبثت مكانها لحظات، وفردت ثنايا معطفها، بينما هي تحاول السيطرة على أنفاسها المضطربة بعض الشيء. ثم دقَّت جرس الباب مرةً واحدةً بحزم. سمعت وقع خطوات بطيئة ثقيلة تقترب، ما لبثت أن تلتها أنفاس مختنقة على الجانب الآخر من الباب، وكأن أحدهم يقف مُتصنِّتًا. فقالت:

– افتح. أعرف أنك هنا.

ظهر أوراثيو على عتبة الباب، وقد ارتسمت على وجهه أمارات المفاجأة والاستنكار. وقف جامدًا، مستندًا بيده إلى إطار الباب، معترضًا طريقها إلى الداخل بضخامته. رأته فصرخت قائلةً:

- إذن، فلقد أوقعتك في حبالها أخيرًا!

- اخرسي.

- ليس في نيتي أن أخرس. عليك أن تسمع كل ما عندي.

تقدَّم أوراثيو نحوها، بذراع ممدودة. وقد تضرَّج اللغد الهائل الذي يُغطِّي عنقه باللون القرمزي، وانتفخ نابضًا. قال لها:

- اذهبي.

ثم أردف بصوت أجشّ:

- اذهبي. ارحلي مرةً وإلى الأبد، سحقًا!

ران صمت طويل، مُفعَم بالترقُّب. في حين وقف أوراثيو جامدًا، وذراعه ما زالت ممدودة. أخذ يلتقط أنفاسه بمشقة، ويرمقها بنظرة عدوانية.

لم يبدُ عليها أنها تعير لفتته العنيفة أدنى انتباه. بل إنها اكتفت بالتحديق إلى عينيه، والتصدِّي لنظراته، وهي تحاول أن تبُثَّ الرهبة في نفسه بدورها. أحسَّت بتلك الخشخشة قريبة منها، بأنفاس أوراثيو المتعبة. فطفقت تقول:

- لن أسمح لتلك الوضيعة، تلك الـ...

لمحت التعبير الوحشي الذي بدا على أخيها فتراجعت إلى الخلف. ثم أردفت، وهي تحسُّ بظهرها يمسُّ حافة الدربزين:

- تلك العاهرة...

وإذا بأوراثيو يندفع إلى الأمام، خافضًا رأسه، وكأنه على وشك أن ينطحها، مطلقًا ذراعه بعنف. أحسَّ بالملمس الصلب الأعجف على راحة يده. دفعها مشمئزًّا، ورأى أمام عينيه رفيفًا خاطفًا لطائر وحشيٍّ أسود الجناحين، من دون أن يجد لما رأى تفسيرًا. خيَّم ذهول قصير، مفاجئ. رأى أمام عينيه رفيفًا داكنًا يعمي الأبصار، وسقوطًا يبعث

على الدوار. ثم تناهت إلى سمعه صرخة كادت تتزامن وذلك الدويّ المكتوم، البعيد، الذي أسفر عنه ارتطام الجسد بأرضية البهو.

شلّت المفاجأة حركته. غير أنه بعد لحظات قصار اقترب من الدربزين لاهثًا. ثم إنه صاح وهو يطلّ على الظلام الذي غشي فوّهة الدَّرَج:

- ديليا!

6

ضمير المُخاطَب

كيف السبيل إلى تفسير ما يجري: انعدام الجاذبية، ذلك الشعور المدهش بالحرية والخفَّة حين تخترق حجب الظلام، فيتفجَّر الليل في وميض يخلب الأبصار، وإذا بعشرة آلاف مليون نجمة تنطفئ وتخمد برجفة جليدية، وإذا بمدٍّ من الشرار يذوب في الوهج بينما أنت مبحر على غير هدًى في العتمة التي لا يحدُّها شيء. كيف السبيل إلى تفسير الشعور بالغمِّ، الذي يداهمك في البدء، متى خلت أنك قد ضللت الطريق في مكان غريب، ولكنه مألوف ألفةً مُبهَمةً، إلى أن تكتشف أنك في حجرة النوم، في بيتك. كل شيء ضبابي، وضوء جديد يغمر قطع الأثاث والأشياء، وكأنك ترنو إليها من خلال عدسة غير مُركَّزة، يمكنك التعرُّف على فراش الزوجية المُحاط بأستار وأعمدة أسطوانية، ذلك الفراش المفرط الفخامة بالقياس إلى ذائقتك، الذي احتفظت به مراعاةً للتقاليد، لأن أجيالًا عديدة من عائلتك وُلِدت وماتت على هذا الفراش. اكتظَّت الطاولة المجاورة بالقوارير وعبوات الأدوية، كما جرت العادة، وتكدَّس الخوان منذ الأمس بالمستندات والملفات التي تحمل اسمك مطبوعًا بالأحمر: دون إلاديو روبليس سانث. كاتب

عدل تاموغا. أوراق مُجهَّزة في انتظار التوقيع، في انتظار أن تمهرها بإمضائك المُطوَّل المُدبَّب مثل قمم أبراج الكنائس. وأمامك، تنعكس صور مرتجفة على مرآة الخزانة المصنوعة من خشب الماهوجني: ذلك الغريب الواقف قرب الفراش هو ابنك ميغيل. أما تلك الطفلة البالغة الهزال، التي تركض نحو الباب والدموع في عينيها، فهي حفيدتك الكبرى. وأما المرأة العجوز، الممتلئة بعض الشيء، التي تنشج مُتَّكئةً بركبتيها على حافة الفراش، فهي آماليا، زوجتك منذ تسعة وثلاثين عامًا. وأما السيد الجادُّ الأصلع ذو الوجه المُدبَّب الأسمر، فهو صديقك راي، دكتور راي، لاعب الشطرنج الأعزب المُتمسِّك بحياة العزوبية، ذلك الذي عكف على حلِّ أزرار بيجامة العجوز المنهار على الفراش، بلحيته الرمادية وعينيه الخليقتين بالأسماك، ثم وضع أذنه على صدر العجوز وكأنه في سبيله إلى سماع سرٍّ عجيب.

كان العجوز راقدًا على الفراش من دون حراك، غير مكترث لأي شيء. فتنظر أنت من خلال المرآة إلى تلك الجمجمة الرمادية اليابسة التي غاصت في الوسادة كالحجر، وإلى الصدر العاري البارد المُسطَّح كالبلاط. تنظر إلى اليدين المُتَّكئتين على ثنية الملاءة وتُفكِّر «أي شيء غريب!»، تُحرِّك أصابعك وتتأكَّد أن هاتين اليدين يداك، إذ تمتثلان لأوامرك، تحسُّ بهما تنقبضان وتنبسطان متى شئت، وإن رأيتَهما ساكنتين مهجورتين وسط الملاءات، تعجب وكأنهما لشخص آخر، وكأنهما بلا نفع يُرتجَى، فلا ضرورة للإمساك بأي شيء، وليس في مقدورك الإمساك بالهواء، بشفافية الهواء (كم هي مقيتة تلك الأصابع ذات المفاصل البارزة، المشعرة كأطراف السرطان)، وعند ذاك تنتابك رغبة جارفة في القفز عن الفراش، لأن الوضع بات مضنيًا منذ حين؛ فالظهر مُتخشِّب والعينان شاخصتان إلى السقف المُعلَّق، ولا بد من

مغادرة الفراش من دون أن تنتبه الأسرة، في حين يصرُّ الكل على محاصرة السرير. لا بد من مغادرة تلك الدائرة الخانقة. تقف على قدميك، فلا تلامس حتى الآخرين. وإذا الهواء جدار شفيف.

يقتضي اختراق حاجز الأجساد مهارةً كبيرةً، في حين تخشى أن يبادروا بالاعتراض ومنعك من القيام، بَيْد أنهم في غاية الانشغال بتكريم الفراش، وتلك الكومة من الثياب حيث يرقد الجسد الطاعن في العمر. تفرد أطرافك، فتشعر بخفَّة، وإذا السير لذة جديدة وموغلة في القدم، تكاد تكون منسيةً، ولا بد من الرجوع إلى أعوام الطفولة الأولى، فتتحرَّك مُتوجِّسًا، كعهدك آنذاك، تترقَّب السقوط بين لحظة وأخرى، أو طقطقة العظام التي يليها ألم المفاصل والاختناق والنخزة التي تصيب منتصف الصدر، كتلك التي أصابتك منذ قليل، ولكن ها أنت قد اقتربت من الباب، وما زلت ماضيًا في سبيلك: الحركات ناعمة، بالتصوير البطيء، وكأن الزمن ما عاد يهمُّ، تمضي في سبيلك، ببطء. ولكنك لا تدري كم من الزمن تستغرق في الوصول إلى الباب، ثواني، ساعاتٍ، سنواتٍ، دهرًا، كيف السبيل إلى تفسير ما يجري. يدخل إلى المكان سِير، ذلك الكلب العجوز الذي ينتمي إلى سلالة السيتر، فيهزُّ رأسه وشعره الناري، وفي نظرته يتجلَّى بريقٌ مذعور. يبدو وكأنه على وشك أن يلقي بنفسه على صاحبه، ولكنه يهزُّ ذنبه ويتابع السير.

ها أنت قد بلغت رواق بيت العائلة الكبير، حيث كان الصمت أول ما طرأ على المكان، الصمت الذي بلغ من الكثافة حدًّا غير مسبوق في البيت، البيت النائم. لا يُسمَع ضجيج الشارع، ولا صرير ألواح الخشب التي اكتست بها الأرضية، تلك التي أكلتها العثة، ولا وقع الخطى التي تحملك إلى المَشْرَف. ومن خلال زجاج النوافذ، تتراءى الساحة

المعهودة، وإن تهدَّمت النافورة التي تتوسَّطها منذ أعوام طوال، حيث تدفَّق خيط من الفضَّة في صمت، آتيًا من فوَّهة الغرغول[1] الحجري الذي اكتسى بالوحل. وفي البيت الكبير المقابل، رُمِّمت الأسقف، وطُلِيت شرفات الواجهة الثماني بالأبيض، وأُزيلت الطحالب عن الأحجار، وعاد زجاج الشرفات يبرق من جديد؛ لا شكَّ أنه عاد مأهولًا بالسكَّان، لأن أحدهم فتح لتوِّه البوابة الرئيسية، التي استقرَّت أمامها عربة يجرُّها جوادان. ينزل الحوذي من مقعده، ويفتح الباب؛ فيترجَّل من العربة رجل وقور في سترة رسمية، ينتعل البوط ويعتمر القبعة العالية، وبرفقته آنستان مُتَّشحتان بثياب الحداد، يدخلون جميعًا إلى البيت. يشقُّ عليك أن تذكر متى رأيت أولئك الأشخاص، ولكن الآنسة الأطول قامةً لها عينان خضراوان، أنت على يقين من ذلك، ولسوف تحضر تلك الآنسة القُدَّاس الإلهي كل نهار متى تخطَّت عهد الشباب، بل إنها تملك كتاب صلوات دفَّتاه من الصدف الذي يتلألأ في غبش الكنيسة، وتجثو على ركبتيها قرب المذبح الكبير دومًا، على كرسي السجود المُبطَّن بالحرير الأحمر. اختفى بناء مكتب البريد من الركن المقابل في الساحة، وحلَّت محلَّه سقيفة متهالكة، حيث يرتجف وهج ناري آتٍ من فُوَّهة المدخل، وهناك يبدو خيال رجل ضخم، مُشمِّرًا عن ساعديه، يطرق السندان بالمطرقة في صمت. تهفو إلى التجوُّل في أرجاء البيت، فتتضاءل المسافة، وتجد نفسك في أقصى الطرف المقابل من الرواق. تسترعي انتباهك مصابيح الغاز المُدمَجة في الجدران. تقف أمام الحجرة الأخيرة: المكتبة. تتردَّد لحظات، ثم تُقرِّر الدخول، لأنك لا تسمع صوتًا واحدًا آتيًا من خلف الباب. تجد

---

(1) غرغول: المزراب الحجري المُصوَّر على شكل كائنات أسطورية مخيفة تتميز بها العمارة الأوروبية القديمة.

رجلًا عجوزًا، هزيل الجسد، أبيض الشعر، سوالفه لها شكل الأضلاع، يتلفَّع بروب أزرق باهت، ويجلس إلى مكتب تكدَّست فوقه أبراج من الكتب المُغبَّرة في توازن عسير، مستغرقًا في القراءة، يغمس ريشته في دواة من النحاس، ويكتب شيئًا على عجل. في البدء، تخاله يحسُّ بك حين تدخل إلى المكان؛ إذ يرفع رأسه ويلتفت إليك. سرعان ما تتعرَّف على ذلك الرأس الخليق ببومة، وهاتين العينين الخاليتين من الأجفان، الذاهلتين، الزاهيتين، المحاطتين بهالات سود غائرة، والأنف القصير المعقوف المُطلِّ من ذلك الوجه الضارب إلى الصفرة. إنه العجوز حبيس اللوحة الضخمة في الصالون، حيث يرتدي سترته الأنيقة، إنه جدُّك الأكبر رايموندو روبليس، علَّامة العائلة، مُترجِم كتاب أكوان لـهومبولت وشارح أعمال بوفون ولينوس ومُؤلِّف الدليل الشامل لمجموع نباتات المنطقة، ومُؤلِّف بحث جدير بالفضول عن أولاوس ماغنوس[1]. تخال أنك لمحت ابتسامة مودة على الشفتين المُتغضِّنتين، ولكن نظرة العجوز لا تستقرُّ عليك أنت، بل إنها تغيب في كومة الكتب التي تحجب الجدار الخلفي. تقف خلفه وتقرأ قراءةً عابرةً، تطالع الحروف الصغيرة المتلاصقة التي تشغل هوامش الكتاب الضخم، تلك الكتابة المزهرة التي طالما فُتِنت بها صغيرًا، ولا سيما لون المداد البني العتيق، وبريق حبَّات الرمال الدقيقة بين الحروف. استقرَّت على المائدة عدة صحون بما حَوَت من بقايا الطعام، وقنينة

---

(1) ألكسندر فون هومبولت (1769 - 1759): عالِم طبيعة موسوعي ومستكشف وفيلسوف بروسي.
جورج دي بوفون (1707 - 1788): مُؤرِّخ طبيعي وعالِم فرنسي.
كارل لينوس (1707 - 1778): عالِم نبات سويدي.
أولاوس ماغنوس (1490 - 1557): كاتب وعالِم خرائط سويدي.

من الزجاج المنقوش مُترعَة بسائل بلون العنبر. تذكر تاريخ العائلة القديم، بما جاء فيه من ثناء على إرادة العمل التي تحلّى بها الجدُّ الأكبر المسكين، حبيس المكتبة، بينما كان الضجر يتسلَّل إلى زوجته الشابة في هذا البيت الرطب الحزين، حتى إنها كانت تقضي أسابيع لا تراه فيها إلا حين يوارب الباب، بما لا يسمح بأكثر من مناولته الطعام وقنينة الشاي البارد الذي يحتسيه بلذَّة كالخمر. أما أنت فتحترم عزلة العجوز، ولذَّته المُتوحِّدة، لذَّة الخربشة بالحبر على ورقة تلو أخرى، لعلَّه كان يضع هدفًا واحدًا نصب عينيه: أن يندهش طفل صغير متى وجد نفسه أمام تلك «النقوش الهيروغليفية» بعد مضي أعوام طوال.

توصد الباب من خلفك ثم تنزل فيما تتلمَّس دربزين الدَّرَج القاتم (لبرهة تخشى أن تكون قد أخطأت في البيت)، تقطع الطابق الأرضي مسترشدًا بالضوء المتساقط كمروحة اليد فوق البلاط، بدءًا من أعتاب المكان. تجد الصالون عامرًا بأشخاص يتجاذبون أطراف الحديث بحيوية، في صمت. يغشى عينيك البريق، الضوء الحيُّ الذي يبدو آتيًا من الأرض، من أخشاب الأرضية اللامعة المطلية بالورنيش. تعاود التفكير بأنك أخطأت ودخلت إلى بيت أُقيم فيه احتفال بمناسبة الكرنفال، وإلا فكيف تُفسَّر ثياب الحضور المتفاوتة كل التفاوت، التي تعود إلى أزمان شتّى! تحاول الاهتداء وسط الجموع، تحاول العثور على شخص تعرفه، كمَن وصل إلى حفل على غير المُتوقَّع. يبدو لك بعض الحضور مألوفًا ألفةً مُبهَمةً. تستغرق في الربط بين تلك الوجوه المنتعشة المُفعَمة بالحياة والصور البنية الداكنة المتناثرة في ألبوم الصور العتيق. إلى جوار البيانو، سيدة رائعة الجمال تقارب الثلاثين من العمر، تجلس على كرسي إليزابيثي الطراز مُزيَّن بالنقوش المُذهَّبة، وتراقب حركات المجتمعين بنظرة جليدية. يستهويك

شعرها الأسود اللامع المتساقط في خصل مُتموِّجة على جِيدِها المُرهَف المُزيَّن بشريط من المخمل الأخضر، وصدرها المنتصب، وخصرها المشدود الناحل، وتنورتها الزاهية المنتفخة بلون السلمون، فتعرف أنها إدِلميرا الجميلة، الزوجة الثانية لجدِّك الأكبر، التي لا يمكن أن تكون سواها. ولكن سيدةً تمضي إلى إدِلميرا حاجبةً عنك الرؤية، سيدةً في الستين من العمر عجفاء مُتلفِّعةً بشال أسود مُسدَل على ذراعيها. تجد أبواب الصالون المفضية إلى قاعة اللعب مفتوحةً على مصاريعها (بعد أن ظلَّت مُوصَدة لما يربو على النصف قرن). وفي منتصف القاعة، تحلَّق نفر من الرجال حول طاولة البلياردو. إنها الطاولة التي عثرتَ عليها في حملات الاستكشاف الطفولية؛ فوجدتها في العليَّة مُفكَّكةً، يكسوها الغبار. تبدو الكرات العاجية وكأنها تدور على البطانة الخضراء طوال ساعات. يتولَّد لديك انطباع بأن فجوةً قد تخلَّلَت الزمن. وإذا بك مُقسَّم، تعيش في أزمنة شتّى، كيف السبيل إلى تفسير ما يجري، تمرُّ من زمن إلى زمن بسلاسة مثلما كنتَ تقفز في طفولتك من خانة إلى أخرى وأنت تلعب الحجلة.

ثم إنك فوجئتَ أوَّل ما فوجئتَ باكتشاف الخال إميليو إلى جوارك -أي شيء جدير بالفضول!- وقد ارتدى زيَّ البحارة وجعل يدخِّن سيجارًا هائلًا. وعلى مسافة يسيرة، جلس الجد إلاديو على الأريكة ناعسًا، عاقدًا ساقيه، فاردًا إحدى الصحف اليومية على ركبتيه وكأنها غطاء. كان في غاية الضخامة، بصداره المفتوح، وشعره الأشعث، ووجهه المُتَّقد، كما في ذكرياتك، ذكريات الطفولة. وذلك الشاب المهزول صاحب البدلة البيضاء، والشارب، والنظارة المصنوع إطارها من الصلب، الذي ينحني على طاولة البلياردو، لا بد أنه كلاوديو، شقيق الجدِّ الأصغر، الذي هاجر إلى كوبا وهو في الثامنة عشرة من العمر.

ينظرون إليك وكأنك لست هناك. وأشدُّ ما تضيق به ألا يعيروك انتباهًا؛ إذ تؤلمك تلك اللامبالاة بشدَّة حين تمضي إلى الرجل الواقف أمامك فاتحًا ذراعيك، وتقصده لأنك تعرَّفت فيه على أبيك، ذلك الرجل القوي، صاحب الوجه العريض والملامح الطيبة التي رأيتها لآخر مرة وأنت في السابعة من العمر، في ذلك النهار الرمادي، لمَّا جيء به إلى البيت مُمدَّدًا على عربة، بعد أن ولَّد امرأةً حبلى في بلدة قريبة. غير أنه (بجبهته العريضة، ورائحة بشرته التي لن تنساها أبدًا) يشيح عنك سائرًا نحو الصالون وهو يفرك شحمة أذنه، في لفتة الريب الملازمة، التي تذكرها بكل وضوح. يجب عليك الخروج من هنا، واستعادة الإحساس بالاتجاه، والعودة إلى النظام القديم، نظام الزمن.

ها أنت الآن في البهو، أمام الباب المصنوع من الزجاج والدَّرَج الحجري النازل إلى الحديقة. خلف الزجاج المُغبَّش، تتراءى الدروب التي تحفُّها شجيرات الكاميليا، وشجرة الكستناء التي أمرت أنت باقتلاعها منذ ربع قرن. بمشقَّة، تجد الوقت الكافي لرؤية الفتاة ذات الشعر القصير والتنورة البيضاء، تلك التي تركض مكشوفة الساقين نحو المقصورة الخشبية ذات القبة المُدبَّبة التي كادت تختبئ خلف شجيرات الجهنمية. يتلاشى ذلك الظلُّ الأبيض بعيدًا، ظلُّ ابنة العمِّ نينا، كذكريات الحبِّ الأول: الأرق اليائس في عمر الخامسة عشرة، وتواطؤ الصيف الخانق، والقيلولة على السرير المُعلَّق تحت شجرة الكستناء الوارفة الظلال، وشعر نينا على ثغرك، ورائحة الأقحوان الآتية من شعرها، ثم الغضب ومذاق الدموع حين خطر لها الزواج من ذلك الأجنبي المقيت وهي في ريعان الشباب.

كيف السبيل إلى تفسير تلك الحاجة المُلحَّة، والرغبة التي دفعتك إلى حجرة الخياطة، تلك الحجرة التي كانت في طفولتك مُقتصِرةً

على رائحة المُبيِّض والثياب الرطبة. على مقربة من النافذة، امرأة شابة شقراء منصرفة إلى التطريز، مُكبَّة على النول، والإبرة بين أصابعها وميضٌ ينفذ عبر خيوط النسيج. تدخل إلى الحجرة، فتلتفت المرأة إلى الباب. تترك النسيج يسقط من يدها مبغوتةً وتهرع إليك (لا شكَّ أنها قد تعرَّفت عليك الآن. لم تعُد هي المرأة العجوز الشكَّاءة الهاذية التي تحتضر في ليلة بلا نهاية، وإنما الأم ذات الصدر الرحب التي تستحضرها في الذاكرة)، تتردَّد لحظات، وتُحرِّك رأسها في خمود أول الأمر، ثم تتراجع وتهزُّ رأسها نافيةً، وترتسم على وجهها الآن ابتسامة رضا.

تحسُّ بحمل هائل، وكأن عظامك مُعبَّأة بالرصاص، فتسقط مرةً أخرى في غياهب الليل، تجوب العتمة التي لا يحدُّها شيء، وموجة دافئة تعلو وتتمدَّد كرجع الصوت، وإذا بعشرة آلاف مليون نجمة تضيء كأضواء مدينة بعيدة، وإذا البريق محيط مشرق، درب التبانة. ومرةً أخرى، تحسُّ بالحمل الشاق، وخدر الحياة المُتعجِّل. تنزلق منزويًا على ذلك الصدر المعتم الحار، تعود أدراجك، إلى أن ترسو على الفراش، وتسمع أصواتًا مقتربة، وكلمات مُتفرِّقة: «حقنة أدرينالين»... «سكتة قلبية»... «لقد استجاب»... «إنه يتعافى»... «ثلاث دقائق كاملة، رباه!»... تنظر مبغوتًا إلى الوجوه المُتحلِّقة حول الفراش، التي تميل عليك، فتحسب أنك استيقظت، ولا تفهم السبب الذي يجعل آماليا تلثم يديك، ودكتور راي يبتسم ويمسح بيده على جبينه، وابنك يبتسم، وقد أطلَّ من عينيه خوف شديد.



7

يوم الغضب

وقع بصره على البيت حين بلغ مفرق الدرب المُوحِل، الذي يمتدُّ من الطريق الرئيسية ويخترق الحقول في اتجاه النهر، مثلما توقَّع. رآه من خلال الرذاذ البطيء على ذلك الضياء المُبهَم، ضياء فجر نوفمبر. قام البيت على مشارف البلدة، وسط الأشجار، مهيمنًا على السهل من موقعه فوق الرابية. كان بناءً فسيحًا من طابقين، له واجهة مُزيَّنة بالخزف الأصفر، وشرفة سياجها من حديد، مُطِلَّة على مصبِّ النهر. وبعيدًا، على ضفاف البحر الرصاصي، جعلت ترفُّ أضواء تاموغا. كانت خلف البيت مزرعة يُطوِّقها سياج مُغطًّى بالنباتات المُتسلِّقة، بينما امتدَّت الطريق إلى ما وراء قطع الأراضي الكثيرة المتناهية الصغر، تليها الغابات الكثيفة الرحيبة التي اكتست بها جوانب الجبل، على مسافة يسيرة.

مضى الرجل قُدُمًا، سائرًا نحو البيت بخطًى حثيثة، واسعة، وهو يخوض البرك الضحلة غير مُكترِث، ويطأ العشب النديَّ بالحذاء المطَّاط. كان يرتدي سترةً تنتهي بقلنسوة منسدلة على عينيه.

وفيما هو يقطع الأرض الفسيحة المهجورة المترامية أمام البيت،

ألقى نظرةً وراءه، إلى الأسفل. فلم يرَ السيارة التي تركها عند منعطف قريب من الدرب، شبه متوارٍ خلف أحد الأسوار.

وقف أمام مدخل البيت. كانت مصاريع النوافذ في الطابق الأول مُوصَدةً، فلم يبدُ من الخصاص أدنى بصيص من الضوء. طرق الباب عدة مرات في همَّةٍ، بتلك الكفِّ البرونزية المُثبَّتة في منتصف الباب. دوَّت طرقات مقرعة الباب كطلقات البنادق في الفجر الناعس.

بعد لحظات، سُمِع صوت الشباك آتيًا من الطابق العلوي. ثم انفرجت النافذة نصف انفراجة، وأطلَّت برأسها امرأةٌ ذات شعر أبيض، أشعث. سألت:

- من الطارق؟

أجابها الرجل ناظرًا إلى أعلى:

- جئتُ أبحث عن الدكتور.

فصاحت المرأة:

- أتدري كم الساعة الآن؟

جاء صوتها زاعقًا، وأخذت تنظر في ضيق وارتياب إلى الخيال الداكن المُترقِّب عند الباب.

- الأمر عاجل جدًّا. سقط جريح على مقربة من هنا.

تركت المرأة النافذة. فسمع الرجل غمغمةً مُبهَمة مصدرها حديث دائر في الطابق العلوي. بعد دقائق، أطلَّت المرأة من النافذة مرةً أخرى، وقالت مُسلِّمةً أمرها:

- حسنًا. سيحضر فورًا.

انتظر الرجل واقفًا تحت الرذاذ البارد. كانت النسائم تهبُّ مُحمَّلةً بالنتن وعفن الأعشاب البحرية بين الحين والآخر، بينما طفت البلدة في أبخرة قطنية، في اتجاه الغرب.

سمع وقع خطًى تدنو ببطء، تلاها صرير المزلاج الآتي من وراء الباب. واربت المرأة الباب في حذر، ثم نظرت إليه مُتوجِّسةً وهي تحاول رؤيته في الضوء.

كان وجه الرجل محجوبًا خلف قلنسوة السترة الواقية من المطر. قالت المرأة وهي تشير إلى الداخل.

- تفضَّل إلى الداخل. سوف ينزل الدكتور بعد قليل.

بقوة، مسح الرجل قدميه عدة مرات على العتبة الحجرية، ونفض عن نفسه المطر. حنى رأسه وكأن الباب شديد الانخفاض، ثم دلف إلى الردهة الفسيحة التي يغمرها الضوء. على يمينه، تراصَّت نصف دزينة من المقاعد في صفٍّ واحد، كلها متشابهة، وقد بهت لونها من فرط الاستخدام. وفي الجهة الخلفية، وجد فوَّهة الباب المُشرَع معتمةً. قالت المرأة وهي تومئ إليه بأن يُقرِّب أحد المقاعد:

- اجلس.

جاء صوتها الآن أكثر مودَّةً، وبدا أن الفضول قد هدَّأ من روعها، فأخذت تحاول بدء حديث معه. أبى الرجل أن يجلس، وأجابها قائلًا:

- أشكرك.

وقف على مقربة من باب الردهة المُوارَب من دون أن يكشف رأسه. بدا أضخم قامةً في الضوء. سألته المرأة:

- إصابة خطيرة؟

كانت عجوزًا هزيلة، وإن تراءى جسدها مكتنزًا تحت الثياب المنتفخة. لم يكُن أنفها الحاد يلائم عذوبة وجهها الهادئ الذي يكاد يليق بالراهبات، ذلك الوجه الحليبي، الخالي من التجاعيد، المُغطَّى بشعر أبيضٍ حريري عند الوجنتين. كانت ترتدي تنورةً طويلةً بنية اللون، وتلفُّ كتفيها بشال من الصوف الأسود. أجابها الرجل بهدوء، خافضًا رأسه، شاخصًا بعينيه إلى الأرض:

- أجل، للأسف. تعرَّض صديقي لإصابة شديدة. إنه الحظُّ العاثر. انطلقت رصاصة طائشة من البندقية فأصابته.

كان شابًا، قويًّا، يتكلَّم ببطء شديد، وكأنما يشقُّ عليه النطق بالكلمات. لم تكُن لكنته من هذه المنطقة.

التهمت ظلال القلنسوة شطرًا من وجهه. تأكَّدت المرأة من كونه غريبًا عن المكان، وإن عجزت عن رؤية قسماته بوضوح. تنهَّدت قائلةً:

- رباه!

بدت مذعورةً. فأردف الرجل من دون أن يرفع رأسه:

- حالته خطيرة جدًّا. أعتقد أنه سوف يلقى حتفه.

وقف عاقدًا يديه خلف ظهره، وتحت السترة الواقية من المطر برز حزام الخرطوش الذي لفَّه حول خصره بوضوح.

- ما الخطب؟

التفت الرجل بحدَّة إلى مصدر الصوت. ومن الباب الخلفي ظهر عجوز نحيف، مُتوسِّط الطول، رأسه شبه أصلع، لم يفرغ من ارتداء ثيابه بعد. حضر فجأةً، في صمت. كان جزء من رأسه عاريًا، ضاربًا إلى الصفرة، أما البقية فاكتست بشعر خفيف خالطه الشيب. بدت العروق في عنقه نافرةً، وكأن تحت بشرته حبالًا مجدولةً. وكان له وجه طويل، ضامر، ووجنتان غائرتان، وذقن حاد، خليق بذئب، وعينان صفراوان مضطربتان، تضيقان خلف عدسات النظارة السميكة المصنوع إطارها من الصلب.

خلف ظهره، بدت العيادة وقد أُضيئت الآن أنوارها. كانت الحجرة تضمُّ طاولة عمليات بسيطةً، وخزانةً ممتلئةً بالجفوت، وجهاز أشعة سينية، وبارافان مُزيَّنًا برسوم بطٍّ يُحلِّق فوق صفحة الماء. أخذ العجوز

يترقَّب على عتبة الباب، وقد مال برأسه، ناظرًا إلى المجهول. بدا كل ما فيه طاعنًا في العمر. رفَّت أجفانه عدة مرَّات قبل أن يتحرَّك. ظهرت عليه الحيرة. ابتعد عن إطار الباب وهو يدسُّ طرف القميص في سرواله، عندئذ اكتسب جسده حيويةً حتى كاد يبدو شابًّا.

دار في خلد الرجل أن الدكتور يختلف كل الاختلاف عن الهيئة التي رسمها له في مُخيِّلته. سأله، وهو يعرف الجواب مُقدَّمًا:

– دكتور لاغو؟

أومأ العجوز برأسه أن نعم. ثم قال مُتحيِّرًا:

– أخبرني ما الخطب.

نظر إليه الرجل لحظةً قبل الشروع في الحديث. بدت عينا الدكتور وكأنهما كُريَّتان من الزجاج، كلتاهما مغروسة في قاع المحجر. فأجاب الرجل:

– أُصيب رفيقي برصاصة طائشة انطلقت من البندقية. كلانا غريب عن المكان، جئنا نصطاد، فأُصيب رفيقي بجرح في بطنه.

قالها واضعًا يديه على خصره. فسأل الدكتور مُقطِّب الجبين:

– تقول إنكما غريبان عن هنا؟

اكتسبت عيناه مزيدًا من الحيوية، فجعل يتفرَّس بهما في المجهول الذي أجاب قائلًا:

– أجل.

خرجت المرأة من الحجرة في صمت. بينما سأل الدكتور:

– أين صديقك؟

– على مسافة تقلُّ عن كيلومتر واحد من هنا. فكَّرت أنه من الأفضل ألَّا أُحرِّكه. فتركتُه في كوخ مهجور، على ضفاف النهر، قريبًا من الموضع حيث كُنَّا نصطاد.

أنصت الدكتور ناظرًا إلى المجهول في ارتياب. فأردف الرجل مُوضِّحًا:

- في مشغل الأخشاب، عند مفرق الطرقات، أشاروا عليَّ بالحضور إلى هنا.

قال الدكتور:

- لا بد من المضي به إلى البلدة.

انقبض وجه الرجل في امتعاض، وبدأ يظهر عليه التوتُّر، فأردف الدكتور:

- حسنًا، لا بأس. دعنا نرَ ما الذي يمكن عمله أولًا.

عاودت المرأة الدخول وهي تحمل سترةً ومعطفًا وقبعةً على ذراعها، وبيدها الأخرى تمسك حذاءً واقيًا من المطر، لامعًا، أسود اللون. فرغ العجوز من ارتداء ثيابه أمامهما. كانت حركاته رشيقة، دقيقة. دلف إلى مكتب العيادة، وأوصد الباب. ثم خرج بعد دقائق وهو يحمل حقيبةً من الجلد منتفخةً بشدَّة. قال:

- هيَّا بنا.

لوَّح بيده للمرأة مُودِّعًا، فنادته:

- إميليو!

التفت إليها الدكتور، في حين أردفت وهي تُعلِّق المظلَّة على ذراعه:

- خُذ معك المظلَّة.

أما الرجل فأفسح له الطريق وخرج في أثره. قال الدكتور:

- سأُحضِر السيارة.

فأجابه الرجل:

- لا ضرورة لذلك. معي سيارتي بالأسفل. لم أجرؤ على الصعود بها خشية أن تعلق في الوحل.

بدأ المطر يشتدُّ وهما يسيران نزولًا، مبتعدين عن البيت. مضى الدكتور بخُطًى حثيثة مُتوتِّرة. وحين وصلا إلى الدرب الذي يخترق الحقول وصولًا إلى النهر، قال الرجل:

- السيارة هنا، عند منعطف الطريق.

تشابكت فروع الأشجار على الجانبين حتى ألَّفَت قبَّةً فوق الطريق. بصعوبة، قطعا بضعة أمتار من الدرب الذي انتشرت فيه الأخاديد، بعد ذلك وقع بصرهما على السيارة. بدا التلُّ بارزًا عند منعطف الطريق.

نظر الدكتور بفضول إلى نوع السيارة -البيجو الخضراء بلون الزيتون- ولوحة الأرقام الفرنسية. ثم قال في دهشة ومفاجأة:

- أجنبي!

فأجابه الرجل باسمًا:

- على نحوٍ ما. أعيش في فرنسا منذ أعوام طوال.

فتح أحد البابين الأماميَّين، وبعد أن دخل الدكتور إلى السيارة، دار الرجل من الخلف وجلس أمام المقود. ترك نفسه يتهاوى على المقعد بعنف، نافد الصبر. فالتفت الدكتور شاخصًا إليه. رفَّت أجفانه من خلف النظارة عدة مرَّات (مدفوعًا بتلك اللازمة المعدية) واستغرق في تأمُّل ذلك الرأس الحليق، الذي تحرَّر الآن من القلنسوة. نظر بامتعاض وبشيء من القلق إلى ذلك الوجه البارز العظام، الأسمر، الجادِّ، بذقنه الذي لم يحلقه منذ أيام. بعد برهة، قال الدكتور:

- يبدو لي وجهك مألوفًا.

تراءت عيناه باردتين، رطبتين. وبدأ يستأثر به الفضول. بينما أجاب الرجل:

- مستحيل.

قاطعًا بذلك حديثه، وهو يدير المُحرِّك.

بدت السيارة وكأنها لن تدور، غير أنها دارت سريعًا، بعد هدير أجشّ مُطوَّل. انكمش الدكتور في المقعد عاقدًا ذراعيه على صدره وكأنما الإحساس بالبرودة بدأ يتسلّل إليه. مضى جالسًا بجوار السائق، وهو يراقب تلك الوحشة الضبابية التي غشيت الحقول، ورمادية نوفمبر الخامدة، من خلال الزجاج الذي تناثر عليه الرذاذ. بين الحين والآخر، جعل ينظر بطرف عينه إلى وجه السائق المستغرق الذي أخذ يتمايل بجواره وينتفض على وقع رجرجة السيارة الماضية ببطء عبر الطريق المُوحِلة المُتموِّجة. في مواضع بعينها، حيث الدرب أشدُّ ضيقًا، كانت الفروع والشجيرات تخدش هيكل السيارة. قطع الرجل ما يقرب من كيلومتر واحد في صمت، منتبهًا إلى مفارق الطرقات، حذِرًا، لئلّا يحيد عن الآثار الغائرة التي تركتها السيارات على الطريق. ثم قال وهو يُخفِّف السرعة:

– ها قد وصلنا.

اخترقت السيارة غابةً كثيفةً من الصنوبر والكافور. نظر الدكتور إلى الوراء وتأمّل البحر مرةً أخيرةً.

قبل أن يلتفت إلى زجاج السيارة، تنبَّه إلى البندقية المُزدوَجة المُغطّى جزء منها في المقعد الخلفي. كان المستنقع والنهر على الجانب الآخر من الأشجار الكثيفة.

والآن، انطمس الدرب، وشقَّت السيارة طريقها وسط جذوع الصنوبر، بحثًا عن مساحات أوسع من الأرض الجرداء، وتحرَّكت في الضباب الكثيف الخفيض الآتي من النهر. توقَّف الرجل في رقعة من الأرض الجرداء، ثم أشار بحركة من رأسه إلى النهر الذي بدا جامدًا تحت سفح الرابية الرملية وقال:

– هنا.

ظلَّ الدكتور برهةً في السيارة، شاخصًا بعينيه إلى جذوع الصنوبر الخشنة، مُتردِّدًا، وكأنه ندم للحظة على مرافقة الغريب في تلك الرحلة. وقع أسيرَ خرسٍ شديد، خيَّم عليه وكأنه انعكاس للصباح الرمادي، والبرد، والوحشة المطيرة التي رانت على شهر نوفمبر. أغرقته الذكريات القديمة كالرذاذ المُتَّصل.

وحين عاود النظر إلى الرجل، شعر بتأثُّر شديد، وتملَّكه إحساس بالإعياء. عبثًا حاول أن يذكر أين ومتى رأى ذلك الوجه الجادَّ، بوجنتيه البارزتين وعينيه السوداوين الغائرتين.

التقط الرجل الغطاء والبندقية من المقعد الخلفي، ثم ترجَّل من السيارة وانطلق في السير. وإذا هو يلتفت ويباغت الدكتور رابضًا على المقعد الأمامي، مزموم الشفتين، زائغ النظرات، وكأنه يعاني ألمًا.

قال الرجل في نفسه: «إنه مُجرَّد عجوز».

ثم صاح في الدكتور:

- هيا، هيا.

لفَّ كتفيه بالغطاء، وجذب البندقية. ثنى ذراعه حتى صارت في مستوى الخصر، وأشار بفوَّهة السلاح إلى حقل القصب الذي يمتدُّ إلى النهر قائلًا:

- مِن هنا.

غاص بقدميه في شجيرات الرتم، وسار نزولًا على المنحدر الرملي. مضى الدكتور في أثره وهو ينزلق على الوحل. توغَّلا في حقل القصب الذي سدَّ الطريق من خلفهما، مُحدِثًا قرقعة. مضى الغريب في المُقدِّمة، مُختَرِقًا حقل القصب بخُطًى واسعة، وهو يزيح القصب الذي اعترض سبيله بماسورة البندقية.

بعد ذلك، وقع بصرهما على الكوخ الإسمنتي المهجور المتواري

وسط القصب (ذلك الذي اتَّخذ منه أفراد الكارابينيروس[1] ملاذًا ونقطةً لمراقبة النهر، في زمن غير الزمن). دخل الغريب أولًا من فوَّهة الباب الضيقة التي احتلَّتها الحشائش، ثم تبعه الدكتور بعد لحظات، فتبيَّن خيالًا شاخصًا أمامه في غبش الكوخ. وتناهى إلى سمعه صوت فظٌّ، عالٍ.

- دكتور لاغو!

سمع أنفاس الرجل المضطربة في الصمت الذي تلى ذلك النداء. تحرَّك الدكتور، وخطا خطوةً إلى اليمين، مبتعدًا عن الباب. عند ذاك رآه. كان واقفًا أمامه، مباعدًا ما بين ساقيه، شاهرًا البندقية في وجهه. استغرق في النظر إلى الغريب وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجزع. فسأله الغريب في غضب وهو يرفع زناد المُسدَّس:

- أتذكر ثيلسو كاستيُّو؟

وبعد هنيهة من الصمت المُفعَم بالتوتُّر، لم يسمع خلالها سوى أنفاسه، عاود سؤاله:

- أتذكر؟

ارتجفت شفتا الدكتور بضع ثوانٍ، ثم عاد إليهما الجمود العنيد، الثابت. ما عاد يعيره انتباهًا. نظر إليه بينما جعلت أجفانه ترفُّ، ثم زاغت نظراته وسط الظلال. أغمض عينيه، غائبًا، وهو يعود ثلاثين عامًا إلى الماضي.

عاد من أجواء نوفمبر المُثلَّجة -في وميض من المشاعر الحائرة، وتكثيف آنيٍّ يخلب الأبصار-، عاد إلى ذلك الفجر المُشرِق في أواخر شهر يوليو، حين داهم وأربعة من أصدقائه مشغلَ كاستيُّو للخياطة.

---

(1) الكارابينيروس: جهاز مُسلَّح كُلِّف بحراسة الحدود والمراقبة الجمركية. تولَّى النظام حلَّه، ودمجه في سلاح الحرس المدني عقب انتهاء الحرب الأهلية.

لم يفعلوا ما فعلوا مع سبق الإصرار والترصُّد، بل إن الفكرة خطرت لهم بعد ليلة أمضوها كاملةً في معاقرة الشراب. ففتَّشوا مشغل الخياطة وخرَّبوا كل ما فيه. بينما كان في الحجرة المجاورة طفل صغير يراقب ما يحدث مرتاعًا، جاثيًا على ركبتيه فوق الفراش، وقد عانقته زوجة الخياط، الرائعة الجمال، بجسدها شبه العاري.

ثم كانت حملة الصيد في الجبل. ما عاد يذكر مَن صاحب الفكرة، تلك الفكرة التي قُوبِلت بترحاب وحماسة خليقة بالصيَّادين في أول أيام موسم الصيد. مضوا جميعًا مُسلَّحين بالبنادق، ثم أطلقوا الخياط في الجبل، قائلين: «اركض يا كاستيُّو. إنها فرصة لا يستحقُّها أحمر واحد».

طفقوا يطلقون النار ويضحكون ملء أفواههم جميعًا، حتى هو، بينما انطلق الخياط الأعرج في رقصة محمومة، بها مسٌّ من الجنون. مضى الخياط يركض وهو يقفز قفزات قصيرة، ويتعثَّر، ويتحرَّك بجسده المُتفكِّك، بينما الرصاص يرتدُّ عند قدميه، وبين ساقيه.

وبعد ذلك، بلغت حملة الصيد ختامها. فأطلقوا النار من أسلحتهم جميعًا، وقد ألصقوا فوَّهاتها بجسد الرجل المُمدَّد عند سفح الجرف.

- أتذكر؟ أتذكر؟

أخذ الغريب يُردِّد بصوت أجشَّ، بينما ظلَّ شاهرًا بندقيته في وجه الدكتور، والسبابة مشدودة على الزناد، غير أنه لم يطلق النار بعد، بل راح يُفتِّش في عينَي العجوز الباردتين الصفراوين عن الرعب الذي استبدَّ بالطفل الذي كانه منذ ثلاثين عامًا مضت. ولطالما جال في مُخيِّلته أن الرعب نفسه قد تملَّك والده حين وقع تحت فوَّهات البنادق.

«إنه مُجرَّد عجوز». قال في نفسه، مُتردِّدًا لأول مرة. ظلَّ يُحدِّق

إلى الدكتور، شاخصًا بعينيه إلى الوجه الأعجف، الجامد مثل قناع جنائزي. «يجب عليَّ أن أُطلِق النار، يجب عليَّ أن أُطلِق النار». قال في نفسه، شاعرًا بالسخط والخزي والنفور في آن.

8

ترابٌ عاشِق

يومَ أربعاء الرماد[1]، حين ذاع في البلدة الخبر القائل بأن إلياس روتشا يلفظ أنفاسه الأخيرة، خطر لنا جميعًا أنه في واقع الأمر قد فارق الحياة منذ أمد بعيد، منذ حاصرته الخيانة والعار في بيت عتيق حافل بالظلال والذكريات.

يومَ الأربعاء، بعد زيارته السنوية إلى المقابر، سقط إلياس روتشا مُتأثّرًا بالسكتة.

كان في طريق العودة وحيدًا، كما هو دأبه، سائرًا حيث الظلال أشدُّ كثافةً، في المنتزه الذي تحفُّه الأشجار. عند ذاك، رآه نفرٌ من المارَّة وهو يتوقّف بغتةً، وقد عاد برأسه إلى الوراء، شاخصًا بعينيه إلى أعلى، وكأنه يُفتّش في السماء عن إشارة ما. بعد لحظات قصار، قبل أن يجد أحدهم الوقت الكافي حتى يهرع إليه، سقط بلا حراك. وإذا بطفل يصرخ مذعورًا من الأعماق:

- إنه الصيدلاني المجنون!

---

(1) أربعاء الرماد: أول أيام الصوم الكبير في المسيحية وفقًا للطقس اللاتيني، ويرسم فيه المؤمنون إشارة الصليب على الجباه باستخدام الرماد.

كان عجوزًا صموتًا، نحيل الجسد، مفرط الهزال، أشيب الرأس والشارب، له وجه ضارب إلى الصفرة، وبشرة تشبه رقوق الجلد، وعينان واسعتان جاحظتان لونهما أزرق باهت. وكان يتّشح بثياب الحداد. منذ هربت زوجته مع ابن شقيقته الوحيد، عاش وحيدًا مع خادمة في مثل عمره، بين جدران بيت هائل، مُتداع، مُشيَّد بالأحجار، يقع بوسط البلدة. في الطابق الأرضي من بيته، أمام ساحة البلدية، قامت صيدلية روتشا التي كانت من أعرق صيدليات تاموغا.

بعد الخيانة العائلية المُزدوَجة، التي احتلَّت الصفحة الأشدَّ إثارةً للحفائظ من صفحات تاريخنا المحلِّي، انزوى على نفسه في عزلة استعلائية، سعى بها إلى درء السخرية والشفقة على نحو قاطعٍ. ومن ذلك الحين، استغنى عن أصدقائه وأعدائه القدامى على حدٍّ سواء. عاش حياةً رتيبةً، وحيدةً، خاليةً من الصِّلات. ما كان يسمح برؤيته إلا لِمامًا، في برود وفتور، وقد ارتسم على وجهه تعبير لا يُسبَر له غور، خلف منضدة العرض في الصيدلية، أو في مَشْرَف بيته العالي متى حلَّ المساء، حيث كان يجلس على الكرسي المُتأرجِح، ويتأمَّل كيف تغوص الشمس في المحيط الأطلنطي. لم يخالط سوى قلَّة من الناس -مخالطةً تغلب عليها السطحية، من دون أن يتخلَّى عن حذره البتة- وهم: عامل الصيدلية سيبيرينو، وخادمته العجوز إنكارناثيون، والدكتور راي، الطبيب العام الذي اعتنى بدونيا ساغراريو پاتشيكو -والدة الصيدلاني- في لحظاتها الأخيرة.

حُمِل إلياس روتشا إلى بيته غائبًا عن الوعي، في شاحنة مُكتظَّة بأقفاص الدجاج، يملكها أحد باعة السوق، كانت هي أول سيارة تمرُّ من هناك، وبعد مضي ثمانٍ وأربعين ساعة، عاد إلياس روتشا إلى المقابر عودةً أخيرةً، حتى اجتمع برماد أسلافه.

ظلَّ إلياس روتشا يلفظ أنفاسه الأخيرة على مدى ساعات طوال لم يستردَّ خلالها الوعي، وقد غاص في الفراش الكبير حيث جاء إلى الدنيا منذ قرابة سبعين عامًا، مُحاطًا بالقلائل الذين ظلُّوا قريبين منه -وإن يكُن بالجسد- لما يزيد على عشرين عامًا من الوحدة المطبقة.

وصل الكاهن في الساعات الأولى من المساء حتى ينال روتشا مسحة المرضى[1]. نظر روتشا إلى الكاهن، الأب كانديدو لوثانو، ومن دون أن يتعرَّفه، سمح له بدهن جسده بالزيت المُقدَّس، في وداعة لامبالية، (كان الكاهن عجوزًا، غضوبًا، مُفوَّهًا، كرَّس الأعوام الأخيرة لطرد الشيطان من جميع أنحاء أسقفية تاموغا. وكان من جيل الصيدلاني، حتى إنهما ذهبا إلى المدرسة معًا في الصغر).

بمشقَّة، همهم المريض:

- الطوفان... الطوفان آتٍ.

فراح الكاهن يتأمَّله بانتباه مُفعَم بالتبجيل، وكأنه قد فرغ لتوِّه من الإدلاء بنبوءة.

من الوارد أن تكون كونسويلو باتشيكو هي التي نبَّهت الكاهن. أو هكذا ارتأى الخبثاء على أقل تقدير، ذلك أن كونسويلو (ابنة عمومة إلياس روتشا وقريبته التي لم يبقَ في البلدة سواها: تلك العانس الجافية المتعالية التي ناصبته عداوةً شديدةً مُوغِلةً في القدم بسبب تقسيم تركة جدِّها لأمِّها)، قد اغتنمت زيارة الكاهن كي تسلَّل بصفاقة إلى البيت الذي كانت أبوابه مُقفَلةً دونها في ما مضى. ومنذ الوهلة الأولى، استقرَّت بجوار فراش المحتضر، ممسكةً بمسبحة من الكهرمان الأسود تصل إلى قدميها، وأعدَّت نفسها لتحمُّل مُدَّة الاحتضار

---

(1) مسحة المرضى: من أسرار الكنيسة المُقدَّسة طبقًا للعقيدة الكاثوليكية، إذ يمسح الكاهن على المريض بالزيت كي ينال نعمة الشفاء.

مستعينةً على ذلك بالصلوات القصيرة والتقديسات الثلاثة[1]، من دون أن تولي أدنى أهمية لتلك النظرات المفعمة بالغضب العارم التي رشقتها بها الخادمة إنكارناثيون.

وبنبرة اقتناع، قالت كونسويلو وهي تدسُّ يدها تحت الوسادة:

- بهذه الأيقونة المُبارَكة سوف يتمُّ له الشفاء.

بُوغِت سيبيرينو بغبش الفجر، بعد أن نعس مُنهَكًا على مقعد عميق من خشب الماهوجني. بينما ظلَّت إنكارناثيون يقظة، منتبهة إلى أدنى حركة، جامدةً، منطويةً على نفسها في ركن من أركان المخدع، وهي الدؤوب التي لا تكلُّ، التي ألِفت الصمت وعزلة الصَّمَم. كانت حجرةً هائلة، حافلة بصور ورسوم دينية تضاعفت في المرايا التي اكتست بها الجدران إلى حدٍّ يبعث على الدوار.

مع خيوط الضوء الأولى، تصاعدت جلبة الطيور المُتوتِّرة آتيةً من الحديقة، فأخمدت تمتمة صلوات كونسويلو باتشيكو، التي كادت تغفو على أريكة بجوار فراش المريض. وعند مطلع الفجر، بينما الدكتور راي يتأهَّب لسماع نبضات قلب العجوز مُجدَّدًا، طفق الأخير يهذي. فسألت كونسويلو، بلهفة:

- ماذا يقول؟

اختنق صوت المحتضر بالحشرجة والغطيط. وراح صدره يعلو ويهبط مثل الكير، ثم أخذ ينفخ بوهن متزايد، مطلقًا صفيرًا جاء وكأنه يتردَّد في كهف. أجاب الدكتور راي قائلًا:

- إنه يهذي. يقول شيئًا عن الخزانة لا أدري فحواه.

---

(1) التقديسات الثلاثة: صلاة من الطقوس المسيحية تقول «قدوس الله، قدوس القوى، قدوس الحي الذي لا يموت، ارحمنا».

وأشار إلى الخزانة المعدنية، التي تكاد تقارب خزانة الثياب في ارتفاعها، والتي استقرَّت في القسم الخلفي من المخدع.

كانت خزانة معدنية، سوداء اللون، مُطعَّمة بحُليٍّ وزخارف مُذهَّبة، موغلةً في القِدَم، مفرطة الضخامة، يزدحم فوقها قديسون من الجصِّ وأزهار مُجفَّفة مُغبَّرة، وكأنها مذبح على الطراز الباروكي. وفي المنتصف، يبرز مسيح مصلوب، تحيط قاعدته جماجم متناهية الصغر منحوتة من العاج. وتحت الصليب، تتوهَّج ذبالة دائمة في سراج من الزيت. كانت تلك آثار الإيمان النقي التي خلَّفتها دونيا ساغراريو باتشيكو، التي رُوِيَ عنها أنها في ليلة الزفاف أرغمت زوجها على تلاوة صلاة المسبحة كاملةً، بأسرارها وطلباتها الخمسة عشر، قبل إتمام الزيجة.

رأت كونسويلو ابن عمومتها يُحرِّك شفتيه ببطء، فسألت:

– وماذا يقول أيضًا؟

فأجابها دكتور راي:

– ما عاد يتكلَّم. بل إنه يتنفَّس بصعوبة بالغة.

قضى إلياس روتشا نحبه في السابعة صباحًا. بعد أن رفع الغطاء بكلتا يديه، باذلًا في سبيل ذلك جهدًا فائقًا، حتى يُغطِّي وجهه. لعلَّها كانت لفتة استحياء. هكذا مات، مُسجًّى في سريره، مدافعًا عن حميميته حتى آخر لحظة. كانت عيناه مفتوحتين، وقد رسم الموت على وجهه الأعجف القاسي تعبيرًا ساخرًا.

بجدية مُطلَقة، قالت كونسويلو:

– يبدو سعيدًا. على وجهه أمارات الغبطة الخليقة بأولئك الذين هم في سبيلهم إلى دخول ملكوت السماوات.

بعد قليل، أُقيمت للمرة الأخيرة تلك الشعائر التي قضت بها تقاليد

آل روتشا كلما حضر الموت إلى بيت العائلة، إذ شرعت إنكارناثيون تدير وجوه المرايا إلى الجدران في حجرة النوم، وأوقفت عقارب الساعة عند تمام السابعة، عقارب الساعة العتيقة ذات البندول القائمة في الصالون الرئيسي.

وعلى عكس جميع التوقُّعات، كانت الجنازة تظاهرةً شعبيةً مهيبةً، تعبيرًا عن الألم. لعلَّ مشاعر الرأفة حملت الحشود على مرافقته إلى المقابر، مرافقة الرجل الذي عاش أعوامه الأواخر وهو يدافع بضراوة عن وحدته (واستحضر الجميع تلك القصة القديمة التي رُوِيت ألف مرة، قصة الزيجة التعيسة التي مُنِي بها الصيدلاني).

«إنه يشعر بالمرارة». كان ذلك هو التفسير الذي ذهب إليه ساكنو تاموغا بوجه العموم حين وجدوه ينفر منهم وينأى بنفسه عن المجتمع، بينما قال آخرون إنه «قد فقد رشده»، أما شيوخ البلدة فاستحضروا الزمن الماضي شاعرين بالحنين، الزمن الذي كان روتشا فيه عازبًا مُفعَمًا بالبهجة، يحبُّ الولائم العامرة في صحبة الرفاق ومجالس السمر في الكازينو. آنذاك، قبل عشرين عامًا خلت، كان يعيش مع أمه وابن شقيقته كلاوديو في بيت الساحة الكبير، المفرط الضخامة بالنسبة إلى ثلاثتهم، والذي سبق أن اتَّسع لعائلة ضخمة، خصبة، عريقة، في عهود مزدهرة، حتى كان المرء يُضطَرُّ إلى دراسة شجرة العائلة بتأنٍّ ليكتشف من هو كل فرد في تلك الشبكة المُعقَّدة من أواصر القربى. بَيْد أن ذلك العالم الأبوي قد تلاشى منذ أمد بعيد، وانطفأ آل روتشا رويدًا رويدًا، حتى اقتصرت العائلة على ثلاثة أفراد: دونيا ساغراريو، وابنها إلياس، وحفيدها كلاوديو. وفي الطور الأخير من أطوار التدهور الذي مُنِيت به العائلة، لم يبقَ إلا الصيدلاني العجوز المُتجهِّم، الذي انزوى على نفسه في بيت الساحة الكبير المُشيَّد بالأحجار. أما كلاوديو، فكان هو

الهدية التي قدَّمتها للصيدلاني أخته بعد أن فارقت الحياة، تلك الفتاة الخجلى الأقرب إلى القبح التي كانت تُدعى ساغراريو هي الأخرى، والتي هربت من البيت مع تاجر جوَّال لدى مروره بالبلدة، بعد نزوة عشق جامحة. تزوَّجا على بعد عدة كيلومترات من تاموغا، قبل مولد كلاوديو بأربعة أشهر. وفي العام التالي، ماتت في أثناء الولادة، فما كان من زوجها إلا أن حمل الطفل إلى بيت جدَّته لأمه بأقصى سرعة، نزولًا عند «الرغبة الأخيرة للراحلة»، على حدِّ قوله.

رأت دونيا ساغراريو حفيدها؛ فقالت بشيء من الضغينة: «على الأقلِّ تحلَّى بحسن الذائقة، ولم يطلق على الطفل اسم أندريلينو» (وأندريلينو هو اسم التاجر الجوَّال). مع ذلك، ما لبث أن زال عنها الاستياء، بل إنها نسيت تعنُّتها في الامتناع عن تولِّي دور الجدَّة العذبة الوديعة طوال أعوام، في تحوُّل مفاجئ.

أما التاجر الجوَّال، فتعهَّد بالعودة بعد أن جاء بابنه إلى تاموغا. قال:

- قريبًا أرسل إليكم عنواني، متى عرفتُ أين يستقرُّ بي المقام.

غير أنه لم يُظهِر علامةً واحدةً من علامات الحياة منذ ذلك الحين.

وهكذا، تولَّت دونيا ساغراريو وابنها تربية الطفل الصغير، الذي كان الشبه بينه وبين أمِّه يزداد يومًا بعد يوم: ورث عن ساغراريو الخجل، والعينين المحزونتين الرطبتين، واللفتات المتثاقلة، والنزعة المميتة إلى الهرب المُدوِّي، كما ثبت لاحقًا.

تحمَّل إلياس روتشا تكاليف دراسة ابن شقيقته وحثَّه على الاشتغال بالصيدلة حفاظًا على تقاليد العائلة. وبعد شهر من حصول كلاوديو على شهادة الليسانس، فارقت دونيا ساغراريو الحياة عن عمر ناهز الخامسة والثمانين عامًا. ظلَّت واعيةً حتى اللحظة الأخيرة، ثم وقفت في وجه الموت باللامبالاة المُكابِرة والشجاعة اللتين رافقتاها مدى

الحياة. لعلَّها ما كانت تنتظر شيئًا سوى ذلك الحدث كي تفارق الحياة، إذ مضى عليها عام كامل وهي مريضة بداء عضال. وعلى الرغم من ذلك، أكَّدت لدكتور راي أنها لن ترحل عن العالم حتى ترى في العائلة صيدلانيًا جديدًا.

يُروَى أن دونيا ساغراريو پاتشيكو، أرملة روتشا، قالت قبيل موتها بدقائق: «ها أنا آتية يا كلاوديو. لن تُضطرَّ إلى الانتظار أطول مما انتظرت»، (أما كلاوديو الآخر فهو زوجها، الذي تركها أرملة في ريعان الشباب منذ خمسين عامًا مضت).

قبل مرور عام على موت أمِّه، تزوَّج إلياس روتشا، الأمر الذي أدهش الجميع دهشةً جارفةً.

جزم أحدهم بأن دونيا ساغراريو، وهي على فراش الموت، انتزعت من ابنها وعدًا بأن يتزوَّج متى فارقت هي الحياة. وقيل إن دونيا ساغراريو طلبت من ابنها ما يلي، مع مراعاة الترتيب: «ابحث لنفسك عن امرأة نظيفة، تقيَّة».

الطلب الذي يبدو مُتَّسقًا وطباعها المغالية، على أقل تقدير.

لم تحتمل دونيا ساغراريو في أي وقت وجود منافسة لها وهي على قيد الحياة (حتى إنها كانت تصدُّ ابنها بضراوة كلما أوشك على خوض أي علاقة غرامية عابرة). ومع ذلك، فلعلَّها رأت من الملائم أن تتولَّى شؤون البيت امرأةٌ أخرى بعد موتها، وتشمل الصيدلاني بالرعاية في تلك السنوات العصيبة، سنوات الشيخوخة الآتية. لو صحَّ ذلك الخبر (من الدوافع ما يحدو إلى الاعتقاد بأن دونيا ساغراريو قد تتقلَّب في قبرها غمًّا لو علمت أن امرأةً غريبةً حلَّت محلَّها في بيت الساحة العتيق، حيث تولَّت بنفسها زمام السيطرة المطلقة لما يربو على الستين عامًا)، فلا شكَّ أن إلياس روتشا لم يستغرق طويلًا في الوفاء بوعده.

لا أحد يدري كيف تعرَّف روتشا بـماغانا. بلغت الشائعات الذائعة من الشطط والتناقض حدًّا جعل أصول تلك الفتاة، التي فتنت الصيدلاني الخمسيني، سرًّا غامضًا حتى يومنا هذا. وعلى كل حال، فمن المعروف أن إلياس روتشا تعرَّف بها في بلدة ساحلية، على الجانب الآخر من الحدود. أما الشائعة القائلة بأنها عملت نادلةً في أحد صالونات الشاي آنذاك، فمن المُرجَّح أن يكون لها أساس من الصحة.

كل ما حدث أنهما ظهرا في البلدة ذات يوم وقد عقدا زواجهما، بعد أن سافر إلياس روتشا في رحلة خاطفة، استغرقت ستة أيام. كان الصيدلاني يُكثِر من عبور الحدود آنذاك (والدافع إلى تلك الأسفار يُمثِّل سرًّا غامضًا، على الرغم من الشائعات الزاعمة بأنه كان يسافر للمضاربة بالذهب والعملة)، لا بد أنه تعرَّف بالفتاة في واحدة من تلك الأسفار، فما لبث أن وقع في غرامها بجنون؛ إذ حضر إلى تاموغا -على غير المُتوقَّع- مُتزوِّجًا، سعيدًا، بل إنه استعاد شبابه مرةً أخرى.

بلغت المفاجأة من القوة حدًّا جعل الناس يستغرقون طويلًا في استيعاب الخبر والربط بين الصيدلاني الهيَّاب الناضج وتلك الغريبة ذات الوجه الطفولي، زوجته، التي كان من الوارد جدًّا اعتبارها ابنته بالنظر إلى عمرها. كان اسمها ماغانا (وهو الشيء الذي لم نعرف عنها سواه)، ولم يبدُ عليها أنها تتجاوز العشرين من العمر. كانت ممشوقة القوام، جذَّابةً، لها شعر فاحم، قصير كشعر الفتيان، وجسد قوي، مرن، منحنياته رقيقة، رشيقة، كما يليق بمراهقة بديعة الجمال على مشارف النضج. كان مظهرها الطفولي -على نحو مُبهَم- يبثُّ الحيرة في النفوس.

تمكَّن أهل تاموغا من تأمُّلها كما يحلو لهم، لأول مرة، في أثناء

خروج المُصلِّين من قدَّاس الثانية عشرة، يومَ الأحد الذي تلى وصولها إلى البلدة. كانت رؤية امرأة على تلك الدرجة من الجاذبية والشباب وقد تعلَّقت بذراع الصيدلاني الناضج تُمثِّل فضيحةً عند الغالبية العظمى. حتى إن بعض النساء التقيَّات شرعن في انتقادها بشراسة خلال القدَّاس الإلهي، متهامسات، من دون أن يعرن وعظة الكاهن الرنَّانة أدنى انتباه، الكاهن الذي بُحَّ صوته على المنبر وهو يحاول إقناع المؤمنين بحضور الشيطان العنيد في تاموغا.

تهامسن في خبث قائلات:

- تكاد تكون طفلة. يعلم الرَّب من أي مكان اختطفها!

وفي باحة الكنيسة، ساعةَ خروج المُصلِّين من القدَّاس، تفحَّصتها النساء بإمعان من قمَّة رأسها حتى أخمص قدميها، بلا أدنى قدر من الاستحياء، ثم أطلقن عليها حكمهن مصدومات، قائلات إن ثوبها المفرط القصر مثير ومُبتذَل. أما الرجال، فجعلوا يتأمَّلونها بشراهة مُعقِّبين بكلمات نابية.

وابتداءً من ظهيرة الأحد آنفة الذكر، صارت ماغانا تتباهى في البلدة بجمالها الأخَّاذ.

كان كلاوديو يُعَدُّ وريث إلياس روتشا آنذاك، ولذا تنبَّأ الكثيرون بأن العداوات بينه وبين زوجة خاله الفاتنة الشابة لن تلبث أن تتفجَّر: فتبدأ مكبوتة، خفية، ثم تخرج إلى العلن، في غير مداراة.

ولكن خاب ظنُّهم؛ إذ لم يكتفِ كلاوديو بالترحيب بزواج خاله على غير المُتوقَّع، بل إنه بات صديق ماغانا ودليلها ورفيقها الذي لا يفارقها.

أكثرا من الخروج معًا. وفي الصيف، كانا يذهبان إلى الشاطئ كلَّ صباح، كما شكَّلا معًا ثنائيًّا في دورة التنس التي نظَّمها النادي

المحلي، ولم يتغيَّبا عن حفلة رقص واحدة من الحفلات المُقامة في الكازينو، التي كان يرافقهم إليها إلياس روتشا في بعض الأحيان، وهو الذي طالما عارض الرقص وعدَّه تمرينًا بدنيًّا يبعث على الضجر، لا نفع يُرتجى من ورائه.

وعند ذاك، اتَّخذت الهمسات مسارًا جديدًا، كالمُتوقَّع. أما الشائعات -التي سرعان ما راجت بمُجرَّد مولدها في صالونات التجميل، والحجرات الخلفية، ومشاغل الخياطة، ومجالس السمر، وحلقات النميمة المُكوَّنة من العاطلين- فلقد تكهَّنت في مكرٍ باشتعال المنافسة بين الخال وابن شقيقته، واندلاع الخلافات العائلية، التي قد تفضي إلى فضيحة كبرى، من شأنها القضاء على الضجر في البلدة طوال شهور. ارتكزت الهمسات على الأحقاد أكثر ممَّا ارتكزت على الأحداث الواقعية، أحقاد أولئك الذين وجدوا إلياس روتشا أكبر عمرًا ممَّا يليق بامرأة في ريعان الشباب، ووجدوا ماغانا أشدَّ فتنةً ممَّا يستحقُّه روتشا. وعلى الرغم من نفاد صبر أولئك المنذرين بالشرِّ، حافظ آل روتشا على رباطة الجأش، وألَّف بينهم تناغم أسري مثالي، وظلَّ الزوجان سعيدين كما في أول عهدهما معًا، في ظاهر الأمر على أدنى تقدير.

في الأمسيات الخالية من الأمطار، كان كلاوديو وماغانا يخرجان معًا بالدرَّاجة إلى الأنحاء المجاورة، فيقطع الثنائي البلدة وهما يُحرِّكان الدوَّاسة بنشاط في اتجاه طريق الساحل، تتبعهما نظرات الفضول، الخبيثة أحيانًا، التي يرشقهما بها الجيران.

كانا يسلكان مسارًا واحدًا إلا في ما ندر، ويلتزمان بموعد واحد، إلى حدٍّ جعل بعض أعضاء الكازينو -من أولئك الذين كانوا ينامون القيلولة ووجوههم إلى النافذة المُطلَّة على الطريق- ينظرون إلى

ساعاتهم بحركة غريزية بمُجرَّد رؤية الشابَّين إذا مرَّا بالدرَّاجة من هناك للتحقُّق من أنها الرابعة مساءً، وبين تثاؤب وآخر يقولون:

- ها قد أقبل طائرا الحبِّ!

في تلك الأمسيات الصيفية، كان منظر الساقين المثاليتين، المكشوفتين، المُذهَّبتين، الممشوقتين إلى درجة مذهلة، يُمثِّل مشهدًا يوميًّا مُحبَّبًا إلى النفوس.

أقبل سبتمبر بغروبه المتثاقل، فصارا يذهبان إلى المرفأ سيرًا، ويتردَّدان إلى بعض حانات الصيادين أحيانًا، ويتجاذبان أطراف الحديث طويلًا في حيوية، وكانت من عادتهما إطالة السير وصولًا إلى جمارك مرفأ أنغرا حتى يتأمَّلا مناورات السفن البخارية لدى مرورها من مصبِّ النهر، والشفق المُخضَّب بالدماء يترامى من التخوم إلى أعماق البحر.

كان مظهرهما السعيد الطليق وخلوُّ بالهما يُمثِّلان تحدِّيًا من شأنه أن يثير الحفائظ في أجواء تاموغا المحافظة المُغلَقة.

وفجأةً، ما عاد أحدٌ يراهما معًا.

قال الناس: «لا شكَّ أن الشائعات قد بلغت سمعه أخيرًا».

ومن ذلك الحين، أصبحت ماغانا تتنزَّه برفقه زوجها دون غيره. أما كلاوديو فبات يقضي ساعاتٍ أطول كثيرًا في الصيدلية، حيث يستقبل الزبائن. كان سيبيرينو عامل الصيدلية هو أول من فُوجِئ بالهمَّة والحماسة اللتين انصرف بهما ابن شقيقة دون إلياس إلى العمل، بل وازداد عجبًا على عجب حين اقترح عليه كلاوديو أن يناوبه في العمل بالصيدلية.

هجر إلياس روتشا مجالس السمر في الكازينو فجأةً، الأمر الذي كان مدعاةً للدهشة. ومع أنه ظلَّ هو الشخص الدمث المعهود، فلقد

أخذ ينأى بنفسه عن الأصدقاء شيئًا فشيئًا، وبات أكثر تحفُّظًا بكثير، وصار يُعرض عن اللقاء بأصدقائه على نحو بيِّن.

ظلَّت ماغانا هي الشابة المنطلقة التي وصلت إلى البلدة منذ عام، وإن لُوحِظ عليها شيء مختلف، تعبير مُتكلَّف يوحي بالتعب، والصراع، والتوتُّر الداخلي. وهكذا، خلص الكثيرون إلى نتيجة مؤدَّاها أن الشائعات قد نثرت بذور الخزي، والسخط، بل وحتى الريب الذي ثار بين أفراد آل روتشا، وسمَّم عليهم الحياة الأسرية. بينما نزع آخرون إلى الاشتباه في عذاب ماغانا بالعشق المحظور، الأمر الذي لم يكُن بعيد الاحتمال.

في وقت لاحق، تابعت البلدة، التي استأثر الفضول بأهلها، زيارات ماغانا إلى عيادة دكتور راي على فترات منتظمة طوال شهور. قال بعضهم: «إنها مريضة». أما أكثرهم عقلانيةً وفطنةً فقد رأوا أنها «في انتظار مولود». وقد كان. فصارت ماغانا الآن تزهو باستعراض بطنها الذي بدأ يبرز، وتعمَّدت إظهاره بثياب خفيفة ضيقة.

من الجليّ أن الصيدلاني قد وضع مُخطَّط الإنجاب قبل الزواج، وذلك من وجهة نظر شيوخ البلدة، أولئك الذين عرفوا ثلاثة أجيال من آل روتشا، وكانوا يذكرون سمات العائلة الانتهازية، التي تحسب لكل شيء حسابه («إنهم وباء مستوطن على وشك أن يُمحى من تاموغا»، كما قال بعد أعوام دكتور لاغو، الذي دارت بين عائلته وآل روتشا مناوشات سياسية منذ أزمنة غابرة). إذن، فهي لم تكُن نزوة عشقٍ خريفيةً طائشةً -كما دار في خلدهم، وهي الفكرة التي خلت من أدنى أثر للمنطق- بل إنه بالأحرى مشروع محسوب ذهنيًّا كالمعاملات التجارية، ويرمي إلى استمرار السلالة. قيل إنه: «لهذا وقع اختياره على فرسٍ!». ومع ذلك، سرعان ما أطلق الخبثاء حكمهم قائلين إن إسهام ابن الأخت كان حاسمًا.

والحقُّ أن البلدة بأسرها طفقت تراقب حمل ماغانا الذي تتابعت أطواره. وكما قضت العادة في مثل هذه الحالة، راحت النساء الأوسع خبرةً يتبادلن التكهُّنات بيوم الولادة على وجه التحديد، وتعقيدات الوضع المُحتمَلة، وجنس ابن آل روتشا الآتي، في حين مال أكثرهن إلى التكهُّن بأن المولود سوف يكون ذكرًا. أما الرجال، فقد اهتمُّوا بمعرفة مَن سيُشبه الصغير في خاتمة المطاف.

قال أحدهم مازحًا: «الشيء المُؤكَّد أن عروقه لن تخلو من دماء العائلة!».

عندما لم يبقَ على إشباع فضول أهل تاموغا أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر (طبقًا لما أعلن عنه بطن ماغانا المُتكوِّر)، دوَّت الفضيحة التي هزَّت البلدة، والتي أحيا ذكراها موتُ الصيدلاني إلياس روتشا.

ذات مساء مطير باعث على الضجر، في أواخر الخريف، نظر برابو، رئيس مكتب التلغراف، من خلال نافذة مكتبه، فوقع بصره على روتشا وهو يقطع الساحة الجديدة، المهجورة في تلك الساعة، التي انهالت عليها زخات المطر؛ رآه وهو يدلف إلى قسم الشرطة بعد أن توقَّف مُتردِّدًا بضع ثوانٍ تحت اللافتة المرسومة المُعلَّقة على أعتاب المكان. طبقًا لما جاء في شهادة برابو، مضى الصيدلاني وهو يترنَّح كالمخمور، وثيابه تقطر ماءً (لعلَّ مُوظَّف مكتب التلغراف قد بالغ في تلك التفاصيل، إن لم يكُن اختلقها بالكامل، حتى يُؤثِّر في نفوس الحاضرين). روى مُوظَّف مكتب التلغراف قائلًا:

- كان مُتَّشحًا بالسواد، كعهده دومًا، لا يحمل مظلَّةً ولا يرتدي معطفًا واقيًا من المطر. أما الصدمة الأشدُّ عندي فكانت هيئته الرثَّة.

لا يُعرَف بدقَّة عمَّا تحدَّث إلياس روتشا ومأمور الشرطة في ذلك المساء. ومن تلال الشائعات والأقاويل غير المعقولة، التي راجت

بكثرة في جميع أرجاء المنطقة حينذاك، يمكن الخلوص إلى نتيجة مفادها أن روتشا اكتفى بالإبلاغ عن اختفاء زوجته وابن شقيقته كلاوديو. كما عُرِف أن الصيدلاني ظلَّ يترقَّب ثلاثة أيام طوال قبل تقديم البلاغ (ربما ثقةً منه بأن يشعر الهاربان بالندم ويعودا أدراجهما، كما افترض الناس). وهكذا، كان الهاربان قد أمضيا ثلاثة أيام في الابتعاد عن تاموغا حين تناهى الخبر إلى الناس.

لم يشهد أحد ذلك اللقاء الذي دار على انفراد بين الزوج المخدوع وبين المأمور، في مكتب الأخير. ومع ذلك، أكَّد بعض مُدَّعي المعرفة بأن روتشا لم يبلغ عن هرب الزوجة، بل عن اختفاء مجوهرات ثمينة من مقتنيات العائلة، كانت لـدونيا ساغراريو پاتشيكو، أمِّ الصيدلاني، ومن الواضح أن الهاربين قد استوليا عليها. أما خبر السرقة فلم يُؤكَّد ولم يُفنَّد يومًا، بل إن تفاصيل القصة الحقيقية ظلَّت محجوبةً في محاضر القضاء وقسم الشرطة. الشيء المُؤكَّد، على الرغم من السريَّة التي توخَّتها الشرطة، أن إلياس روتشا قدَّم للمأمور رسالةً كُتِبت بأسلوب مُتكلِّف، طنَّان، ممهورةً بتوقيع العاشقَيْن، يخبران فيها الصيدلاني بأنهما قد اتَّخذا قرارًا بالهرب، ويطلبان منه الصفح، في وداع ينطوي على شيء من سخرية القدر.

من الممكن إعادة تمثيل زيارة الصيدلاني إلى المأمور بلا جهد يُذكَر: بدأ روتشا يروي الواقعة الأليمة بصوت أجشَّ، وهو لا يزال واقعًا تحت أثر الصدمة. أما المأمور المفرط الضخامة، الرابط الجأش (كاردونا، الذي يقارب المترين طولًا، ويزيد على المئة كيلوغرام وزنًا)، فدعاه إلى الجلوس، ولكنَّ الأرجح أن روتشا لم يعِر دعوته سمعًا، بل إنه ظلَّ واقفًا، يروي القصة في تدافع متزايد. أصغى المأمور إليه في ثبات، مُدرَّعًا بالمكتب، وهو يُدخِّن بلا هوادة. حثَّه المأمور وكأن خيط الحديث على وشك أن ينقطع:

- استمرَّ، استمرَّ.

من آن إلى آخر، كان يتنحنح، وقد لفَّه دخان السيجار، حتى يقطع رواية روتشا الملتبسة، ويستوضحه بمنتهى اللباقة عن تفصيلة بعينها، أو يستعيد مقطعًا مُبهَمًا. فكان روتشا يبدأ القصة من جديد، أو يتلعثم بشيء مُبهَم، إن لم يجد الإجابة الملائمة. وأخيرًا، فمن المُرجَّح أن كاردونا رافق الصيدلاني إلى الباب وهو يُربِّت على ظهره في مودة، ويتحدَّث إليه بصوت خفيض، بنبرة المُعزِّي، الحامي، في محاولة منه لمواساته، ويميل نحوه بشدَّة كمُعلِّم يلقي بوصية على تلميذه -وقد ظهر تفاوت هزلي بين ضآلة الصيدلاني وقوام المأمور العملاق-، وأخيرًا، ودَّعه المأمور بشَدَّة على يده، حارَّة، مُطوَّلة، وبكلماته المُبهَمة المعهودة عند الوداع:

- حسنًا، سنرى...

ونتيجةً لتلك الأحداث غير المُتوقَّعة، راجت شائعات لا تُعَدُّ ولا تُحصى، أعزت إلى بطلَي القصة أفعالًا هي الأكثر شططًا والأبعد عن الاحتمال. قيل إن ماغانا، قبل التعرُّف بالصيدلاني، كانت راقصةً تكشف عن جسدها بسخاء في إحدى خيم المهرجان. كما أكَّد أحدهم أن كلاوديو وماغانا كثيرًا ما كانا يتواعدان في فندق مُطلٍّ على الشاطئ، على الجانب الآخر من الحدود، وأن ابن شقيقة الصيدلاني هو الذي دبَّر لقاء ماغانا بخاله. فلم يُعرَف على وجه اليقين إن كانت تلك الشائعات، التي يستحيل التأكُّد من صحَّتها، مبنيةً على بعض الأحداث الواقعية أم إنها محض هراء كسائر الشائعات الرائجة في تاموغا.

بعد المقابلة بأيام، توجَّه المأمور كاردونا إلى مرفأ أنغرا. ومن هناك استقلَّ زورق البريد الذي يعبر الحدود مرتين يوميًّا، وذهب إلى فندق

على الشاطئ، يقع في بناء إسمنتي قبيح، مُربَّع، شرفاته مُطلَّة على البحر. شرع يتقصَّى الأمور، ساعيًا إلى التحرِّي عمَّا جرى، مُضيِّقًا الخناق على مالك المنشأة بالأسئلة، ذلك المالك البرتغالي الأكرش الذي أدلى بردود مراوغة، بصوته الذي يشبه صوت الناي. تذكَّر المالك هذين الشابَّين وإن لم يتمكَّن من تحديد الأيام التي تردَّدا فيها إلى الفندق، حيث لم يبيتا ليلتهما قطُّ، بل كانا يكتفيان بتمضية بضع ساعات في كل مرة. تتبَّع كاردونا خط سيرهما، على هدى التعليمات التي أفاد بها صاحب الفندق. كانت حِجَّةً عاطفية. قد يتخيَّل المرء كاردونا وهو يترنَّح مضطربًا على الكثبان، بطيئًا، بطرف معطفه المرفوع وشعره المُبعثَر في مهبِّ الريح، بقامته الهائلة الشاخصة ومن خلفها السماء الرمادية والبحر المُزبِّد. قطع الشاطئ، المهجور آنذاك، وليس له رفقة سوى الطيور البحرية. كما زار منشآت ساحلية أخرى. في بعض الأمكنة، ذكرهما الناس ذكرى مُبهَمة. ولكن، في حانة قريبة من مصبِّ النهر، استرسلت امرأة عجوز في ذكريات دقيقة، مُفعَمة بالحنين، وهي جالسة خلف منضدة العرض. قالت:

- أجل، كنت أراهما في بعض الأمسيات وهما يسيران على الشاطئ، متعانقين، ولكنَّ الكثبان الرملية سرعان ما كانت تحجبهما عن عينيَّ. انظر من هذه النافذة، سيدي. من هنا كنت أراهما.

رجع كاردونا إلى الفندق، وهناك تحدَّث إلى النُّدُل، واستجوبهم إلى حدِّ الإجهاد. ثم عاد إلى تاموغا وقد عرف الكثير من العادات الغرامية التي دَرَج عليها الشابَّان، وإن لم يعثر على طرف خيط واحد، إن هي إلا معلومات مُتفرِّقة لا قيمة لها، مثل آثارهما على الشاطئ، تلك التي انقطعت على ضفَّة البحر.

مرَّ الزمن، ولم يُعرَف أين اختبأت زوجة الصيدلاني وابن شقيقته.

ربما كانت ماغانا بلا أقرباء، أو ربما انقطعت كل صلة بينها وبينهم، لأن أحدًا لم يسأل عنها أو يتحرَّى أخبارها قطُّ.

راجت شائعة مُؤدَّاها أن العاشقَيْن قد عبرا الحدود خلسةً، وقيل في وقت لاحق إنهما قد توغَّلا في المنطقة الداخلية، بعد أن تركا البحر خلفهما. ولكنها لا تعدو أن تكون افتراضات. في كل عام، كان أحد المهاجرين العائدين إلى البلدة يُؤكِّد أنه قد رآهما في أي ركن من الأركان البعيدة. وإذا بهما يمتلكان قدرةً إعجازيةً على الحضور في كل مكان؛ فخلال الأيام نفسها تقريبًا حدَّد الناس موقعهما في لشبونة وبوينوس آيرِس وريسيفي وكومانا[1]، ويعلم الرَّب في أي أمكنة أخرى. في وقت لاحق، تبدَّلت الأنباء بأخرى، وكثُرت الأخبار الزائفة. فمن المعروف أن المُخيِّلة الشعبية قادرة على اختلاق تنويعات لا يُحصى لها عدد.

منذ ولَّى كلاوديو وماغانا هاربَيْن من تاموغا، لم يعُد أحد قادرًا على تحديد موقعهما بدقَّة. ومن ذلك الحين، منذ الهروب المشؤوم، لم يتعافَ إلياس روتشا من الضربة قطُّ (لم يقتصر الأمر على خيانة زوجته، بل إن خيانة ابن شقيقته، الذي ربَّاه وكأنه ابن له، كانت أشدَّ وطأةً)؛ وهكذا طعن في السنِّ بسرعة مذهلة، وانزوى على نفسه في وحدة وخَرَس لازماه طوال العشرين عامًا التالية.

في البدء، قيل إن إلياس روتشا فقد رشده، وإن لم يكُن لتلك المزاعم أساس جادٌّ يُؤكِّد صحتها، بطبيعة الحال. حتى الصغار كانوا يطلُّون من باب الصيدلية وقد ملأهم الخوف والفضول، فلا يكادون يرونه حتى ينطلقوا عدوًا، وهم يصيحون في هياج:

---

(1) في هذه الفقرة ورد ذكر عاصمة البرتغال، تليها عاصمة الأرجنتين، تليها مدينة في البرازيل، وأخيرًا مدينة في فنزويلا.

- الصيدلاني المجنون آتٍ!

كان الناس ينظرون بشيء من التوجُّس إلى البيت ذي الثلاثة طوابق، المُقفلَة مصاريعه دائمًا، حيث عاش الصيدلاني منعزلًا، وانقطع زبائن كثيرون عن شراء حوائجهم من صيدلية روتشا حينًا. ولكنَّ الزمن خفَّف من تلك الظنون رويدًا رويدًا. وفي سنواته الأواخر، ما عادت هيئة العجوز المنعزل، الذي لا يؤذي أحدًا، توقظ في نفوس الجيران سوى فضول ورأفة مُفعَمة بالشفقة والسخرية.

بعد الجنازة (رأى جميع أهل البلدة أن تشييع الجثمان من بيت الساحة الكبير حتى المقابر واجبٌ تقتضيه الرحمة)، ثارت التكهُّنات بشأن المصير المُحتمَل الذي ينتظر ثروة الصيدلاني.

ما كان أحد ليتخيَّل أن يُشيِّع الجنازةَ موكبٌ أكبر عددًا، على الرغم من المطر الذي انهمر مساء ذلك اليوم بلا انقطاع. مضى النعش في عربة جنائزية يجرُّها زوجان من البغال المهزولة، شعرهما أسود، حوافرهما تزلُّ مع كل خطوة على البلاط المُبلَّل في شوارع تاموغا.

طالب رفاق إلياس روتشا القدامى بأحقيَّتهم في إنزال النعش على الأكتاف من البيت وصولًا إلى الساحة، حيث كانت العربة الجنائزية في انتظارهم (كادوا يُفلتون النعش على الدَّرَج، وقد ناؤوا بحملهم). وهكذا، اضطرَّ المُتزاحِمون في الشوارع والمُطلُّون من النوافذ والشرفات إلى تأمُّل ذلك المشهد الموحش، الذي قدَّمه ستة من الشيوخ الطاعنين، الذين حملوا النعش الفاخر متدافعين، بخُطًى مُتعثِّرة، ذلك النعش المُزيَّن بالمشغولات البرونزية، المُغطَّى بإكليلين مهيبين من الأزهار.

تشكَّل الموكب خلف العربة. وفي نظام مراسمي مثالي قطع الشوارع الرئيسية، التي كاد الماء يغمرها، وصولًا إلى المقابر.

قبل أن يُدفَن الجثمان، زعم كثيرون بأن إلياس روتشا قد اكتنز ثروة مُعتبَرة، مستعينًا على ذلك بحرمان الذات والاقتصاد المُتقشِّف، وهو الذي اشتهر بالبخل. زِد على ذلك ميراث عائلته، الذي كان من أكبر مواريث تاموغا، واشتمل على عدة بيوت، وأرضَيْن صار موقعهما مركزيًّا بمضي الأعوام، فضلًا عن خيرة الأراضي الجبلية في المنطقة بما حَوَت من أشجار الصنوبر والكافور.

لم يدرِ أحدٌ ما إن كان روتشا قد ترك وصية، ومع ذلك، فلقد عُدَّ أمرًا مفروغًا منه أن يكون قد أوصى بكل ممتلكاته لخادمته إنكارناثيون (الخادمة العجوز، التي عملت في خدمة آل روتشا قرابة ستين عامًا، تلك المرأة الهزيلة، التي تجعَّدت بشرتها وانحنى ظهرها بمضي الأعوام، حتى لم يتخيَّل أحد أن تلك الكومة مِن الجلد المُتغضِّن، الممتلئة بالعظام المُتصدِّعة، كانت امرأةً بارعةَ الجمال تضرم مشاعر الشغف في قلوب الكثيرين)، ومن أجل مُوظَّفه الأمين سيبيرينو، الذي عمل في الصيدلية منذ ما يربو على الثلاثين عامًا.

في اليوم التالي على الجنازة، ونزولًا عند طلب كونسويلو باتشيكو، التي كانت تُعَدُّ وريثة الصيدلاني بصفتها ابنة عمومته وقريبته التي لم يبقَ سواها، اجتمعت لجنة من كبار البلدة لفحص الأوراق وجرد الممتلكات والبحث عن الوصية التي أخذ يتحدَّث عنها الجميع وكأنهم على علم بوجودها.

في ذلك اليوم المشهود، وصلت إلى بيت آل روتشا العتيق لجنة مُكوَّنة من العمدة والكاهن ومأمور الشرطة والقاضي وكاتب العدل والدكتور راي واثنين من تُجَّار تاموغا. ظلُّوا يطرقون البوابة بالمقرعة البرونزية الثقيلة قرابة عشر دقائق. فقال دكتور راي موضحًا:

- الخادمة تكاد تكون صمَّاء.

وأخيرًا، نزلت إنكارناثيون العجوز على الدَّرَج، بخُطَى وئيدة، وهي تغمغم كلامًا عصيًّا على الفهم، بصوت خافت، مُتَّشحةً بالسواد التام، وقد تهدَّلت على وجهها خصلات رمادية. حدجتهم بنظرة نارية، في حيرة، شاعرةً بالمهانة، وفتحت البوَّابة التي لم يسبق أن تجاوزها أيٌّ منهم، باستثناء الكاهن والدكتور راي. كادوا يتحسَّسون الطريق وهم يقطعون البهو الفسيح القاتم الذي غشيته الرائحة النفَّاذة الباعثة على النعاس، رائحة العقاقير والأدوية والنباتات الطبِّية التي جيء بها من الصيدلية المُلحَقة بالبيت، من دون أدنى شك.

ولمَّا أَلِفت عيونهم العتمة، رأوا في خلفية المكان حجرةً مُبلَّطةً مُتَّصلةً بالبهو، كانت إصطبلًا في ما مضى، وهناك رأوا عربةً بلا دواليب أمامية، وسيارة فورد سيدان موديل 1915 يكسوها الغبار ونسيج العناكب (السيارة الفورد المتهالكة، التي جابت طرقات المنطقة كافةً، وكانت أداةً فعَّالةً لا غنى عنها في المغامرات العاطفية التي خاضها أميريكو باتشيكو، خال الصيدلاني، زير النساء الأسطوري في تاريخنا المحلِّي، ذلك الذي رُوِي عنه أن نوبةً قلبيةً قد أودت بحياته وهو يحاول تسلُّق سور أعلى ممَّا تحتمل قواه، بعد أن تخطَّى السبعين).

قال دكتور راي مُنبِّهًا:

- انتبهوا للدربزين، فقد طاله العفن.

أرشدت إنكارناثيون الزائرين إلى الدَّرَج ومضت بهم على امتداد الرواق في الطابق الأخير، الذي أضاءته كُوَّة عالية قذرة. ثم إنها توقَّفت أمام حجرة مُوصَدة بقفل مفرط الضخامة. وفيما هي تُبرِز من تنورتها حزمة مفاتيح صاخبةً، قالت:

- مكتب السيد.

دلفوا إلى حجرة غارقة في الغبش، جدرانها مُغطَّاة بالورق الأصفر

والذهبي، تبدو عليها مواضع النشع الذي تركته الرطوبة. كانت الحجرة مُؤثَّثة بطاولة عريضة، ومقعد من الجلد المُتشقِّق، وخزانة مصاريعها من الزجاج، ونصف دزينة من الكراسي، وطاولة يعلوها غطاء من الرخام مُكتظَّة بقطع الزينة: من بينها تُحَف، وساعة تُغطِّيها قبة من الزجاج، ودورقان كبيران ملؤهما الورود المصنوعة من النسيج الأحمر.

طفت رائحة عفونة في الحجرة. وعلى الجدار الخلفي، عن يمين النافذة الوحيدة، عُلِّقت لوحة مرسومة بالزيت، ألوانها داكنة، تُصوِّر عجوزًا مُقطَّب الجبين، عبوس الوجه، يرتدي سترةً رسميَّةً (إنه دالميرو روتشا، جدُّ الصيدلاني).

بدت الطاولة غارقةً تحت الأوراق المُصفرَّة، والدفاتر الملفوفة، والخيوط، والأقلام الرصاص، وقطع الشمع الأحمر، والصحف، والرزنامات العتيقة. وفي أحد أركان الطاولة، استقرَّ إطاران مُغبَّران وجهًا لوجه. أطلَّت ماغانا من الصورة الأولى، المُلوَّنة يدويًّا –بشعرٍ بالغ القصر، وثوب وردي مفتوح الصدر، بلا أردان– وقد افترَّ ثغرها عن ابتسامة أبدية. أما الصورة الأخرى، الأصغر حجمًا، فأطلَّ منها طفل نحيل، بوجه مذعور، ونظرة زائغة حزينة، في ثياب المناولة الأولى. وعلى حافة الصورة السُّفلية كُتِب إهداء بخطٍّ كبير: «إلى خالي العزيز، في ذكرى أسعد أيام حياتي، مع كلِّ المودة، ابن شقيقتك كلاوديو».

كانوا في حاجة إلى ما يزيد على ساعتين من الفحص المُتأنِّي حتى يدركوا أن المكان خالٍ إلا من أوراق عديمة الأهمية: فواتير، مراسلات تجارية، وصفات طبية، كتالوجات، دفاتر محاسبة قديمة دُوِّنت فيها بدقة حتى أصغر الحسابات منذ أكثر من قرن من الزمان، وكذلك ريع

الممتلكات العائلية ورصيد صيدلية روتشا وديونها منذ تأسَّست. وفي الصوان، تراصَّت الكتب الدينية دون غيرها: كتب الصلوات، وكتب القدَّاس الإلهي، وسِيَر الشهداء والقديسين، وكتاب مُقدَّس أكلت العثَّة دفَّتَيْه، على صفحاته الأولى دُوِّنت أسماء وتواريخ وصلبان بمداد صار لونه بنيًّا، باهتًا. وفي أحد جوارير الطاولة، عثروا أخيرًا على رزمة من سندات شركة بحرية برتغالية وجرَّة من البورسلين ملأى بقطع النقود الذهبية العتيقة. وهذا كل شيء. كانوا على وشك التخلِّي عن البحث عندما دخلت كونسويلو پاتشيكو وقالت:

- في مخدع ابن عمومتي خزانة. مُوصَدة.

عبثًا راحوا يُفتِّشون وسط أوراق المكتب عن أرقام الخزانة السرِّية، التي لم يعرفها لا سيبيرينو ولا إنكارناثيون، فاضطرُّوا إلى استدعاء موسكيرا، صانع الأقفال.

على مضض، فتحت إنكارناثيون المخدع المترامي الأطراف، ورمقت موسكيرا ومساعده اللذين جاءا يحملان مواقد اللحام والعتلات والمفاتيح والأجنات كما لو كانا لصَّيْن في سبيلهما إلى السطو على البيت.

وبينما كان موسكيرا يضرم موقد اللحام، انتفض مذعورًا على دويِّ الصراخ:

- همج!

اعترضت إنكارناثيون بشدَّة على الأضرار التي سوف يتسبَّب فيها صانعا الأقفال. حتى اقتضى الموقف الاستعانة بصبر الدكتور راي من أجل إقناعها بأن فتح الخزانة بالقوة ضرورة لا غنى عنها. هدأت إنكارناثيون بفضل كلمات الدكتور الذي أكَّد لها أن صانعي الأقفال لن يضرما النار في البيت ولن يُلوِّثا المخدع، فانصرفت وهي تغمغم

لاعنةً، ثم استقرّت في الحجرة المجاورة، من حيث يمكنها أن تراقب تحرُّكات الدخيلَيْن.

عمل صانعا الأقفال جاهدين طوال بقية اليوم. ومع ذلك، لم يتمكّنا من فتح قفل الخزانة المُعقَّد حتى قرابة الحادية عشرة من نهار اليوم التالي. عند ذاك، أعلن موسكيرا، وهو يلهث شاعرًا بالرضا:

- انتهينا!

هرع سيبيرينو لتنبيه القاضي، الذي كان في المحكمة آنذاك. وما هي إلا دقائق حتى وقف الجميع مُتحلِّقين حول الخزانة الفولاذية الصلبة الهائلة.

تسلَّل الضوء من خلال الستائر الأرجوانية، وترقرق وهجٌ مضرج بالحمرة على رأس الفراش حيث قضى إلياس روتشا نحبه.

نظر موسكيرا إلى القاضي مستفهمًا، ممسكًا بالحلقة المُذهَّبة البارزة في منتصف الخزانة؛ فأومأ القاضي برأسه بالإيجاب، بعد أن نظر إلى الكاهن والمأمور على التوالي. عندئذٍ، جذب موسكيرا الحلقة بقوة، فانفرج الباب الثقيل مُحدِثًا صريرًا مُدوِّيًا، واجتاحت الغرفة هبَّة من الهواء العطِن النفَّاذ.

وإذا كونسويلو پاتشكو ترفع صوتها بالصراخ وهي تتراجع إلى الوراء مُشيرةً بذراعها الممدودة إلى الظلَّيْن الساكنين في الخزانة المُوارَبة.

عانق أحدهما الآخر كتوأمين في رحِم عملاق مُغبَّر، كمومياوَيْن شاخصتَيْن إلى الزائرين، مُبهرجتَيْن بالحليِّ (القلائد والأساور والخلاخيل البرَّاقة التي غاصت في اللحم اليابس). ومن جوف القبر المعدني، جعل كلاوديو وماغانا يراقبان في جمود مشؤوم، كلٌّ من محجريه الخاويين، المُجرَّدين من اللحم.

9

النهر بلا ضفاف

في ليلة أكتوبر التي تلت عيد ميلاده الستِّين، أفاق خوسيه-آوغوستو إغليسياس من حلم حزين مقبض وهو يتصبَّب عرقًا.

«ثيثليا، ثيثليا». راح ينادي برقَّة، وهو لا يزال شبه نائم، وقد مدَّ ذراعه إلى أقصى الطرف المقابل من الوسادة. بعد أن نطق باسم زوجته بلحظات، استحوذ عليه مرةً أخرى ذلك اليقين المؤلم بأن فراش الزوجية قد تخلَّلته فجوة قاطعة، مساحة خاوية إلى الأبد.

ماتت زوجته منذ أربعة شهور مضت، بَيْد أنه ما زال يناديها مُتأثِّرًا بقوة العادة كلما أفاق من كابوس، مثلما كان يفعل وهي تشاركه الفراش، ناسيًا للحظات أنها صارت تحت الأرض، وأنه بات ينام وحيدًا في عزلة فراشه الفسيحة.

كان طويل القامة، نحيفها، له شعر رمادي، ووجه مُصفرٌّ مفرط التجعيد بالقياس إلى عمره، وصدغان بارزان تشقُّهما العروق النافرة، ووجنتان غائرتان، وعينان خضراوان، واسعتان، زجاجيتان، بدا وكأنهما مُتَّسعتان ذهولًا على الدوام.

استوى على الفراش متثائبًا، وبمفاصل أصابعه جعل يفرك عينيه

المُلبَّدتين بالنعاس. وارَب الناموسية، ثم قفز من على الفراش، وبالنظر إلى عتمة النافذة تأكَّد أن ما زالت تفصل بينه وبين مطلع الفجر عدة ساعات. كانت دقَّات المطر الرتيبة المتساقطة على السطح المصنوع من الزنك تُدوِّي وتنخر رأسه منذ أسبوع. تمدَّد مرةً أخرى، وجعل يتحسَّس الطاولة المجاورة للفراش بحثًا عن التبغ وأعواد الثقاب، مُتوخِّيًا الحذر لئلَّا يطيح بالنظارة ودورق الماء. وفيما هو يُدخِّن تحت جنح الظلام، وينفث الدخان على جذوة السيجارة، حاول أن يتذكَّر الحلم بأدقِّ تفاصيله. تذكَّر الحبكة العبثية. وبدهشة، تذكَّر أن الحلم نفسه قد راوده قبيل موت زوجته، منذ أشهر، ورأى فيه بلدةً كبيرةً حزينةً، تقع بين البحر ومصبِّ النهر.

هذا هو الحلم الذي راوده. مضى سائرًا في شارع مهجور، تحفُّه على الجانبين بيوت حجرية، كبيرة، أبوابها ونوافذها مُوصَدة. وعلى مسافة بعيدة، لمح عجوزًا رثَّ الهيئة، أبيض الشعر واللحية، مضى بخُطًى عرجاء، مُتوكِّئًا على عصاه. ولمَّا صار العجوز قريبًا، في مجال صوته، قرَّر أن يسأله عن اسم البلدة. لا بد أن العجوز حدس بخواطره قبل أن يُحرِّك خوسيه-آوغوستو شفتيه؛ فصاح مشيرًا بعصاه إلى البيوت المُتراصَّة عند سفح الجبل قائلًا: «تاموغا!».

مضى خوسيه-آوغوستو في سبيله حتى أدرك أن الشارع ينتهي بالمقابر. بعد أن دخل إلى المقابر بقليل، تمثَّل أمامه العجوز من جديد، وإن صار الآن يضع قناعَ طائرٍ على رأسه. كان أمام ضريح مُتهدِّم، وأخذ يُلوِّح بيده مشيرًا إليه بالاقتراب. ولمَّا بات قريبًا، شرع يبحث في التواريخ والأسماء المنقوشة على القبور، بينما العجوز يراقب خوسيه-آوغوستو وهو يمسح بيديه الوحل عن الشواهد. رفع خوسيه-آوغوستو رأسه، وهو ما زال يلهث، عندئذ قال العجوز:

«إنهم يرقدون هنا إلى الأبد». عند ذاك، ادلهمّت السماء، وإذا بزوبعة من الغبار تغشى كل شيء، والعجوز يتفتّت ويغدو رمادًا وترابًا. حتى الأضرحة والصلبان والتماثيل وأشجار السرو صارت ترابًا. فتح فمه، بَيْد أنه لم يقوَ على التفوُّه بشيء، لأن كفنًا ثقيلًا من الرماد قد لفَّ جسده: امتلأ ثغره وعيناه ومنخراه بالتراب، فاختنق إلى ما لا نهاية.

وفي تلك اللحظة أفاق مغمومًا، حائرًا، بلسان ثقيل، وأنفاس مُتهدِّجة، وكأنما التراب والاختناق اللذين أحسَّ بهما في الحلم صارا واقعًا.

مضى يتذكَّر أيام حياته باندفاع طوال البقية الباقية من الليل، بينما الأرق يقضُّ مضجعه، والكابوس الذي ساوره منذ قليل يبثُّ الحيرة في نفسه، والحنين يورثه الوحشة.

تأمَّل مُمدَّدًا على الفراش: «إن المحصلة النهائية بالأحرى مريرة، ومُحزِنة».

منذ فارقت زوجته الحياة، عاش وحيدًا في البيت، في ذلك البناء المُكوَّن من طابق واحد، الذي اتَّخذ منه حجرةً ومكتبًا ومخزنًا في آن. وبحكم عمله في تمثيل شركات الأدوية، اضطُرَّ إلى التغيُّب كثيرًا، والتنقُّل بين قرى المقاطعة. ومع أن الإحساس بالشيخوخة والإجهاد بدأ يتسلَّل إليه، فلقد آثر تعب الأسفار على عذاب البقاء في بيت خاوٍ صامت، مأهول بذكريات زوجته حتى الأركان الأشدّ خفاءً.

في ليالٍ كثيرة، كان يجوب أرجاء البيت وقد جافاه النوم، على أمل اللقاء بزوجته في أي لحظة. حدَّثه هاجس بأنها لو علمت بكل الشقاء، الذي تكبَّده في الوحدة، لجاءت واستقرَّت معه نهائيًّا.

ذات ليلة، أشدَّ حزنًا ووحشةً من ليالٍ فائتة، ظلَّ يشرب حتى مطلع الفجر، ويحتسي الرَّمَّ القوي الحارق الذي ألهب حلقه، على أمل

أن يطرد صورة زوجته من ذهنه. كاد يصرخ حين دلف إلى حجرة الخياطة ولمح خيالًا مُتَكِئًا على الكرسي المُتأرجِح الذي كان لزوجته. همَّ بمناداتها، فاختنق صوته بخيبة الأمل. لم يكُن ما رآه سوى كومة من الثياب البيض التي تركتها الخادمة هناك. لم يسبق له أن أحسَّ بالشيخوخة والهجران والوحدة كما فعل حينذاك، جامدًا في غبش الحجرة الخانق، وجسده ينتفض على وقع فواق كحولي عنيف. في تلك اللحظة، تداعت قناعته دفعةً واحدةً، قناعته بأن الموتى قد يُبعَثون بقوة الحنين واليأس والاشتياق الذي يضمره لهم الباقون على قيد الحياة. وفي نوبة من السُّكْر الحزين اليقِظ، أدرك أنه وزوجته قد افترقا إلى غير لقاء، لأن العودة بالزمن ضرب من المحال، والماضي لا يتكرَّر، ولا تُوجَد تعويذة ولا مشاعر حنين قادرة على إعادتها من الظلال.

تعرَّف بـثيثيليا بعد أن قضى عشرة أعوام في هذا البلد. كانت تعمل نادلةً في الفندق المتواضع الذي أقام فيه آنذاك. ذات ليلة، بعد شهور من لقائه بها، أفلح في إقناعها بالدخول إلى حجرته. واستمرَّا على تلك الحال قرابة عام، يلتقيان خلسةً، مخاطرين بافتضاح أمرهما لدى القائمين على الفندق. قطع إليها وعدًا بقوله: «إذا أقنعتِني، تزوَّجتُ منك». فتمكَّنت من إقناعه في النهاية، بعد زمن يسير. الأمر الذي لم يندم عليه خوسيه-آوغوستو يومًا؛ إذ جمع بينهما تناغم مثالي طوال زواجهما الذي دام ثلاثين عامًا.

ثم فارقت زوجته الحياة، بعدما أَلِف حضورها الصامت كل الألفة (كان يراها تتحرَّك في أرجاء البيت، حافية القدمين، من دون أن تُحدِث أدنى صوت، فيقول لها: «تبدين وكأنكِ هندية!»)، رحلت الآن وهو على وشك أن يحتاجها أكثر ممَّا سبق، في سنوات الشيخوخة.

أما فكرة العودة إلى مسقط رأسه، وإن تكُن زيارةً قصيرةً، فلا بد أنها نضجت ببطء على مدى الأيام الرتيبة الحزينة، وليالي الأرق الأليم.

استطاع أن يجمع بعض المُدَّخرات. حتى فارقت زوجته الحياة، كان مهاجرًا قانعًا، ناجحًا في عمله المزدهر، وله اسم تجاري مضمون، من بارَّانكيًّا إلى سانتا مارتا[1]. كان بلا أبناء، ولا أقرباء. إذ انصرف إلى عمله بكل ما يملك، فما كاد يُكوِّن أي صداقات. أما الآن، فصار عاجزًا عن احتمال الوحدة، إلى حدٍّ جعله يفاجئ ذاته أحيانًا وهو يُكلِّم نفسه بصوت خفيض، أو يستغرق في حديث مُفعَم بالحيوية مع لا أحد. كان يُحدِّث نفسه قائلًا بصدق هادئ: «أنا على وشك الإصابة بالخرف. إنه المخُّ الذي بدأ يضعف».

وُلِد في بلدة تُدعَى تاموغا، في أقصى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، ولم يشعر بالحنين إليها منذ رحل عنها قبل أن يُتِمَّ عامه العشرين. لم يهجر بلدته جوعًا، وإنما لهفةً للهرب من تلك الأجواء البائسة، الروتينية، المضجرة، حتى تبيَّن في وقت لاحق أن الحياة قد تكون مضجرة وروتينية وبائسة بالقدر نفسه، على الجانب الآخر من البحر. مات أبواه وشقيقه الوحيد منذ أعوام طوال، ولم يبقَ له في البلدة سوى أقرباء بعيدين، جفاة، لم تجمعه بهم أدنى صلة.

عاد إلى تاموغا وديسمبر في أواخره.

مضى زمن طويل على سفره حتى بدا له أمرًا مفروغًا منه ألَّا يستطيع واحد من أهل البلدة أن يتعرَّفه. سافر إلى لشبونة بحرًا. وذات ليلة ساكنة، سماؤها مُرصَّعة بالنجوم، ليلة غمرت السفينةَ المبحرة وسط المحيط بصمتٍ كوني وعزلة لا يحدُّها شيء، اكتشف أنه لن يهدأ له بال حتى يلمح شطآن طفولته.

---

(1) مدينتان في كولوميا.

قطع البقية الباقية من الرحلة إلى تاموغا في سيارة بويك متهالكة اشتراها في لشبونة من برازيلي عائد إلى بلده. كانت السيارة مُوغِلةً في القِدَم، مُرقَّعةً بقطع من سيارات شتّى، غير أنه اشتراها لثمنها البخس، ولأن البرازيلي ذكَّره بواحد من أصدقائه القلائل في بارَّانكيًا. ذكَّره بمواطنه الذكي، الجاد الملامح، الذي يمتلك صيدلية في پاسيو كولون. كان شراؤه السيارة نزوةً من نزوات الحنين.

وبعد أن عبر الحدود بنصف ساعة، وقعَ بصره على البلدة من فوق أحد التلال.

مضت أعوام طوال على رحيله عن البلدة، فتراءت له غائمة، بعيدة، طافية على صفحة الماء والضباب، حتى بدت وكأنها لاواقعية. على يمين الطريق، تدفَّق النهر -واسعًا، داكنًا- حتى غاب في البحر المترامي في الأفق. كانت أمهار صغيرة غزيرة الشعر ترعى في المستنقعات وقد علق بها الوحل، على مقربة من النهر.

بعد قليل، في الساعات الأولى من الصباح، دخل إلى تاموغا، ببطء. رأى المنتزه الذي تتوسَّطه مقصورة الموسيقى، وتحفُّه أشجار الدُّلْب والزيزفون والنخيل الذي جاء حفيفه عاليًا. رأى البيوت الأولى، مثلما كانت في طفولته: بعضها من الأحجار، وبعضها الآخر تتصدَّره واجهة من الخزف، وتُطوِّقه حدائق مُسيَّجة.

أوقف السيارة في وسط البلدة، ثم ترجَّل منها، وجعل يتأمَّل البيت الذي وُلِد فيه من مكانه على الرصيف. كان بيتًا عتيقًا، ضخمًا، مُشيَّدًا من الأحجار، مسقوفًا بالخشب المُزخرَف، ويطلُّ من واجهته مَشْرَفان. جعل يتأمَّل البناء من خلال المطر، حتى أدرك أنه بدأ يتجمَّد من فرط البرودة. دار في خلده أن «كل شيء ما زال على حاله، كما كان في الماضي».

ركب السيارة وقد اتَّخذ قراره بزيارة المقابر، على الرغم من البرد وطوفان المطر الغزير. قال في نفسه وهو يدير المُحرِّك: «إلى الأمام أولًا، ثم يجب عليَّ الانعطاف يسارًا واتِّخاذ طريق الساحل».

تركت السيارة وراءها بيوت تاموغا الأخيرة وتوغَّلت سريعًا في الدرب الملتوي الذي يقطع غابة الصنوبر والكافور. تبدَّى النهر ساكنًا رماديًّا من بين الرُّقَع المُجرَّدة من الأشجار. بينما أخذت مسَّاحة الزجاج الأمامي تطمس السهلَ ثم تكشفه، مرةً تلو أخرى. انعطف عند ناصية قريبة من المقابر، فاسترعى انتباهه صليبٌ من الحجر. وبعد أمتار، رأى أسوار المقابر بلونها الأبيض، والرُّبى الصافية، والنهر الرمادي ماؤه، الذي يترامى واسعًا في اتجاه البحر.

وجد رجلًا قصير القامة، أحدب، يحتمي من الأمطار بمظلَّة، ويفتح سياج المقابر. فسأله خوسيه-آوغوستو وقد استأثر الأمر بفضوله:

– ماذا عن ذلك الصليب الذي أمامنا؟

اضطُرَّ إلى تكرار السؤال؛ فأجابه الرجل موضحًا، وهو يختنق بالسعال:

– آه، الصليب يشير إلى موضع حادث. رجل غريب عن المكان انعطف عند تلك الناصية كالمجنون، فسحقته شاحنة.

عثر خوسيه-آوغوستو إغليسياس على ضريح العائلة، ولم يضلَّ سبيله في متاهة الصلبان والقبور. لم يكُن قد زار الضريح منذ أربعاء الرماد البعيد حين رافق أمه إلى المقابر قبل أن يهجر تاموغا بشهور.

التمعت شواهد القبور التي غسلتها الأمطار. بينما طفق خوسيه-آوغوستو يقرأ الأسماء والتواريخ، بغُصَّة في حلقه. وفيما جعل يتهجَّى النقوش، تدفَّقت الذكريات غزيرةً، حتى ما عاد يدري إن اكتفى بقراءة أسماء الموتى أم راح يناديهم في نوبة من الحنين.

في البدء، قرأ اسم والدته، والتاريخين اللذين انطوت بينهما مسيرتها على وجه الأرض. ثم قرأ النقش المحفور على قبر أبيه، في المقصورة السفلية، النقش الذي ترأس قائمةً مُطوَّلةً مُتشعِّبةً من التواريخ والصلبان. وبدهشة، قرأ النقش الأخير. ثم راح يتهجَّاه من جديد، غير مُصدِّق. وقال في نفسه: «لعلَّه خطأ!». أخذ يُفتِّش عن المخرج، ورفع صوته صائحًا، مناديًا الرجل الذي فتح له بوابة المدخل. فلم يكُن هناك أحد. دفع الباب الحديد المُوارَب ثم هرع إلى السيارة. قال في نفسه: «أنا في الحلم!». ثم فكَّر محاولًا استجماع أحاسيسه: «هأنذا مُبلَّل بماء المطر حتى النخاع، أحسَّ بالبرد».

أبحرت السيارة سريعًا على الطريق المستنقعية. في حين بدا الحقل وكأنه لطخة داكنة، ظِلٌّ تغمره المياه. انهمرت السيول الجارفة وكأنها ستارة منسدلة أمام عينيه. انعطف خوسيه-آوغوستو إغليسياس عند الناصية الحادة، هناك حيث رأى الصليب الحجري، عندئذ قال مُتعجِّبًا: «أكاد أقسم إن الصليب كان هنا!».

لم يجد من الوقت ما يكفي ليزيد على ما قال شيئًا، لأن شاحنةً جاءت من الاتجاه المعاكس في تلك اللحظة، فانقلبت عند المنعطف وأطبقت عليه وهي منطلقة بأقصى سرعة.





الفهرس

تاموغا بلدة حافلة بحكايات الهجران والحبِّ والجنون والموت، ذلك الذي يبدو وكأن أهل البلدة والمسافرين المارِّين بها يحملونه في طيَّات نفوسهم. تتقاطع خيوط هذا العمل وتشترك في عدة عناصر، أهمُّها المكان، تاموغا، حيث يتوارى شخوص الرواية بعيدًا عن العيون، ويُدفَنون أحياءً، سائرين في موكب الظلال نحو غياهب الليل. بل إن تلك البلدة الحدودية القاتمة، حيث لم تزَل أصداء الحرب الأهلية تُدوِّي عاليًا، تُعَدُّ هي الشخصية الرئيسية التي ترمز إلى إسبانيا خلال حقبة مظلمة من تاريخها الحديث.

صدرت هذه الرواية بعد مُضيٍّ قرابة أربعين عامًا على كتابتها؛ إذ تعذَّر النشر في حينها خوفًا من مقص الرقيب والأوضاع السياسية المُتأزِّمة.

خوليان رِيوس: كاتب إسباني يُعَدُّ من أهمِّ الأصوات الأدبية الطليعية. وصفه الروائي كارلوس فوينتيس بأنه «أكثر كُتَّاب اللغة الإسبانية ابتكارًا وإبداعًا»، وقالت عنه صحيفة الغارديان إنه «وريث جيمس جويس». تطرَّق رِيوس في مُؤلَّفاته إلى مختلف الألوان الأدبية، كما اشترك في كتابة أكثر من عمل مع صاحب نوبل المكسيكي أوكتابيو باث.



ISBN 978-977-6633-377



تنمية

لوحة الغلاف: ...o Somoza
تصميم الغلاف: محمد ال...